الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حسن الحلبي

مستحيلة

روايـة

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حسن الحلبي

مستحيلة

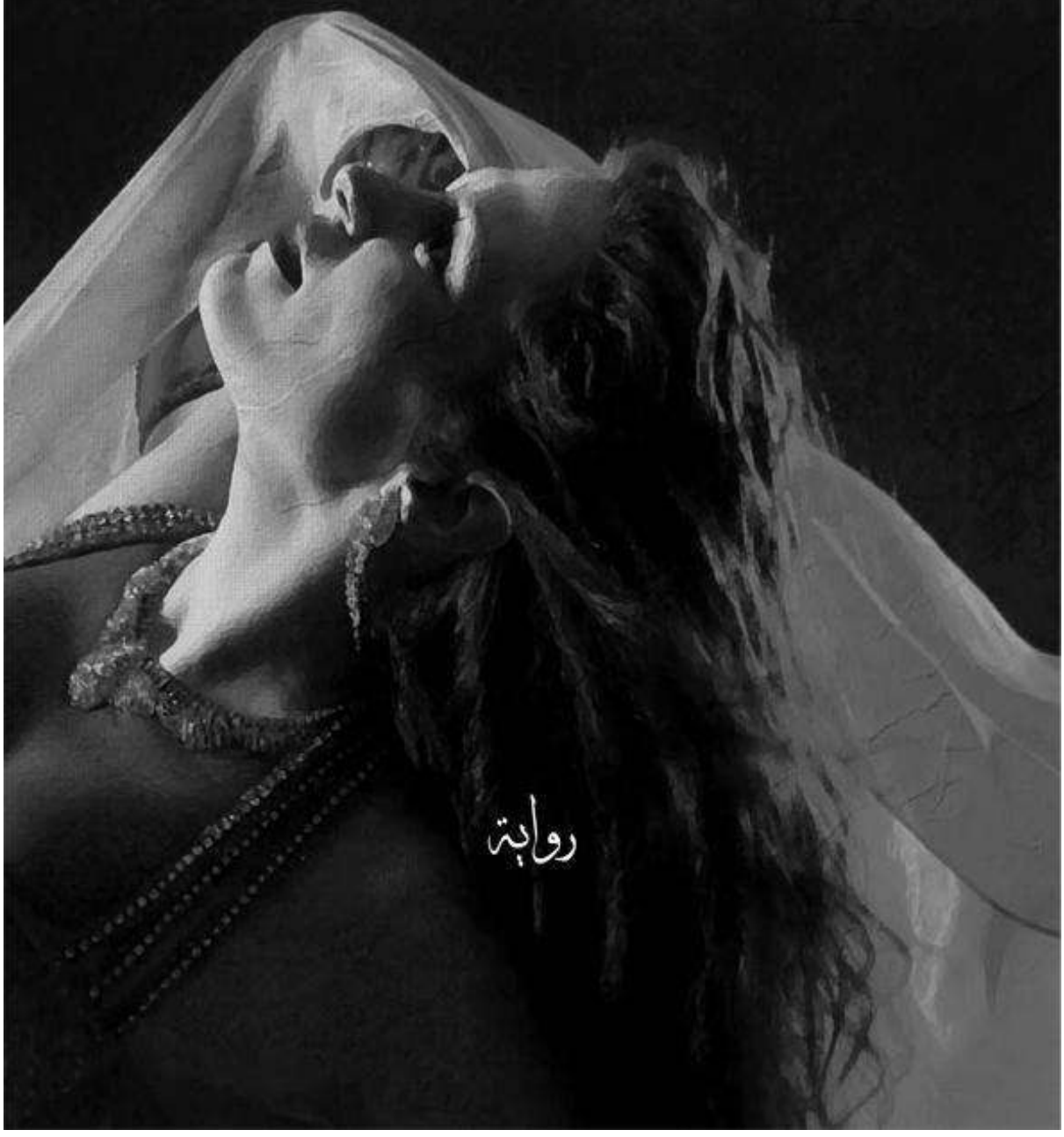

رواية

مستحيلة

رواية

حسن الحلبي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1432 هـ – 2011 م

ردمك 978-614-421-249-3

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 – لبنان

فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس** ، بيروت – هاتف 785107 1 00961

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم** ، بيروت – هاتف 786233 1 00961

مُـتّـكـأ

ذلك الحبلُ الذي يركض نحو الغريق كي ينقذه من فم البحر النهم؛ ربما يكون ذات الحبل الذي يشنقه!

إهـــداء ..

إلى الصفحة السابقة!

الفصل الأول [1]
هُــوَ

(1) هذا ما كتبه..

1

(أمّا بعد)

قَبْلَكِ

عَيْنُ الحَقيقَةِ أُغْمِضَتْ عَنِّي

وَيَنْبُوعُ الحَيَاةِ بِداخِلِي

عاشَ اخْتِناقاً مُشْبعاً

بالمَوْت..

قَبْلَكِ

جَسَدِي فَراغٌ صاخِبٌ

أَعْصابُهُ

مِثْلَ الحَنَاجِرِ فِي مَلايينِ الجُسُومِ السَّاكِتَةْ؛

.. صَمْتٌ بِطَعْمِ الصَّوْت!

* * *

وتحدِّقُ في وجهي بذاتِ الدِّهشة الأولى:

- كيف ينبثق الكلامُ منك؟!

- منكِ الكلام، ولأجلكِ تسيل جداول اللّغة؛ أنتِ إلهامي.. أنتِ من يناولني الكأس الّتي نتجرّع منها الحروف..

- قلتَ هذا لكم فتاة غيري؟!

- ولا واحدة..

تنظرُ لي في شكّ ممزوج بطفولة وبراءة، تسألُني مُداعِبة:

- حتّى ولا لنفسك؟!

- نفسي بدونكِ؛ قنديلٌ على هيئةِ فمٍ؛ بألسنةٍ مُطفأة!

- حتّى بحديثِكَ شِعر؟!

- ألا تدرين أنَّ الشّاعر يتنفّس اللغة؟! إنّه يطوّق الكلمات بزفيره وشهيقه.. يرتدي الصّور والتشبيهات لباساً جديداً له.. يشتاق مفردات البشر الذين حوله.. لا شيء فيه يشبههم ولا شيء فيهم يماثله.. يفوقهم إنسانيَّة وروحاً.. وبكلّ هدوء وصخب؛ تتفجّر ذاته ألف قصيدة في كلّ خطوة..

- أحبُّكَ!

- أحبُّكِ!

* * *

«لتبدأ الحياةُ كلَّ يومٍ مِن جديد؛ كما لو أنَّها بدأت للتوّ».

(جوته)

* * *

..

..

..

وحين عرفتُها لأوّل مرّة، وحين التهم وجودُها ما يجتاحُني من نمل يمكث في جسد أيَّامي؛ لم تكن الحياة ورديّة تماماً؛ قطّ..

2

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

كَالنَّحْلَةِ الحَمْقاءِ

أَقْفِزُ

مِن نساءٍ فارغاتٍ

نَحْوَ أَشْباهٍ لَهُنّْ..

لَمْ أَكُن أَدرِي

بأَنَّ الحُمْقَ - كُلَّ الحُمْقِ -

أَنْ تأَتِي لِغَيْمَاتٍ عَوَانِسَ؛

.. ذَا الجَفافُ؛ هُطُولُهُنّْ!

* * *

في كلِّ يوم لِي مغامرة جديدة؛

مُملَّة!

مِن المرتزقة الَّذِين يعتاشون من تعاقب الليل والنَّهار؛ أنا..

مِن النَّوارسِ، ساكِني المنارات البعيدة..

مِن الغيلان الخُضر الَّذين ينقِذون الأميرات من أبراج التَّنانين..

مِن أولئك الَّذين تحكي المعلماتُ قصصهم للأطفال بصوتٍ موحٍ، مِن أولئك المُتكاثرين في ثرثرة العجائز وندواتِ الأساطير..

مِنهم كلُّهم نبعتُ، ومِن رحم أمِّي خرجتُ إنساناً عارياً لا يفقه من الحياةِ غير ذاته المفقوءة، وغير أنّ مصيره الشّعر، وحياتَه؛ القصائد..

شيء كارثيّ أن تكون شاعراً؛ عظامك حينها تنطق بالأوزان، ذهنك يموت وجسدك يفنى وأنت ما زلت تتمتم بما قاله عظماء الجاهلية قبل مولدك بخمسة عشر قرناً..

شيء كارثيّ أن تكون شاعراً؛ قلبك دائماً في حالة اشتعال، دائماً يطلب المستحيل، دائماً يسافر عبر الزّمن ويحلّق في كلّ الأماكن ويخترق الجدران والأرض والسَّماء..

.. قلبك دائماً مشروع نزف، وحبّ، وجرح، وموت، وحياة، وبساتين!

* * *

مِن المرتزِقة الّذين يعتاشون من تعاقب اللّيل والنَّهار؛ أنا..

عِندما تصحو مِن نومك مُدركاَ أنّ أمامك دورةً روتينيّة نمطيّة تعيشها هي هي منذ شهور كثيرة؛ فهذا حكم بالإعدام الحيّ..

هذا حكم لم تصدره محكمة، ولم ينطقه قاضٍ؛ إلاّ إن اعتبرت أنّ حياتك هي المحكمة والقاضي معاً:

أصحو، أدخّن، أذهب للعمل، أتناول الإفطار، أتنقّل عشر ساعات بين جهاز الحاسوب وطاولة الرسم، أنتهي مِن العمل، أدخّن، أذهب للبيت، أتناول الغداء، أدخّن، أذهب إلى (رزان) أو (آيات) أو (أحلام) أو غيرهنّ من رفيقات القلم والجسد، أدخّن، أعود إلى البيت، أدخّن، أقرأ، أقرأ، أقرأ، أدخّن، أقرأ، أقرأ، أقرأ، أدخّن، أنام..

.. الإغماء الحقيقي؛ هو الصّحو في واقع تحبُّه، لكنّك لا تحبُّه!

* * *

«لقد لقَّنتها الحياةُ درساً لا يُنسى، وهكذا حِينما يُغلق بابٌ ما في قلبِها؛ فإنّها تُسارع إلى فتح باب آخر».

(ميرتل ريد)

* * *

3

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

حُضْنِي؛ أَنا

وَأنا الَحَبِيبُ وَصَاحِبِي

وَيَدِي إِذَا مَا لاَمَسَتْ أُختاً لَها

أَحْتَارُ فِي النَّشْوَةْ..

قَبْلَكِ

إِبْهامِيَ السِّيجَارُ

وَالأَضْوَاءُ تَمْرِينُ الرِّياضِيَّاتِ لِلعَيْنَيْنِ

والأَشْخاصُ أَوْهامٌ بِخُلْوَةْ..

قَبْلَكِ؛ ذا اللَّيْلُ يَأْتِينِي

عَلى اسْتِحْياءِ رَاهِبَةٍ أَتَتْ جُرْماً بِدُونِ تَقَصُّدٍ

لِيَسيلَ لِي مُغْرَوْرِقاً بِالعَتْمِ

.. فِي فِنْجَانِي المُشْتَاقِ لِلقَهْوَةْ!

* * *

الآنَ أنهيتُ قصيدتي الجديدة..

كعادتي منذُ بدأتُ السَّير في هذه الطريق، طريق الشِّعر، قراءة وكتابة؛ كانت الأوراق مضمار سباق بالنسبة لي، وكان القلم حِصاني الأدهم، والكلماتُ صهيلي..

كعادتي لم أنظر للشّعر إلاّ كخصم.. خصمي وحبيبي بنفس الآن! هذا شيء لم يحدث من قبل.. عاشقان ويكبر حبُّهما إذ يتشاجران؟!

هذان نحن!

الآن أنهيتُ قصيدتي الجديدة..

أقرأ كلماتها أكثر من مرَّة دون رضا، أكوِّر الأوراق الَّتي امتلأت بخطوط وكلمات وأفكار عبثيّة لا معنى لها، وألقيها في سلّة النفاياتِ بجانبي؛ كتُهمةٍ يُزيحها محامٍ ماهر عن كتفي موكّله بِحنكة..

يدخلُ عليَّ المدير العام للشَّركة، يقترب مِنِّي فأسارِعُ بإخفاء القصيدة تحت كومةٍ من الأوراق المستلقية على المكتب منذ أيَّامٍ بإهمال.. يُعاتبني قليلاً لتأخُّري في إنجاز ما عليَّ لكنَّه سُرعان ما يتبخَّر مِن أمامي لِيُجيب مكالمةً هاتفيّة عاجلة، مهما قال عنِّي فهو لا ينسى أنِّي مديرٌ هنا أيضاً؛ وإن

كنتُ أقلّ منه وظيفيًّا..

ينتهي العملُ فأعودُ إلى البيت مشياً.. بيتي قريب.. أنسكبُ في الشَّارع متأمِّلاً كلَّ ما تقع عليهِ عيناي.. أشربُ وجوه النَّاس كعادتي لأزداد استيقاظاً، ألعقُ ملامحهم بعيوني، أمارسُ في داخلي تحليلاً غريباً لِما فعلته –ورسمته- فرشاةُ الزّمن بهم..

اليومُ عيدُ ميلادي!

لا بدَّ لي أن أحتفل.. لا بدَّ أن يشاركني أحدٌ فرحتي بقدومي إلى هذا العالم قبل أربعة وعشرين عاماً.. لا بدَّ أن يمسح أحدهم دمعات قلبي الشّفافة، العالقة من بعض ما أحاول نسيانه منذ عامين..

لا بدّ!

أتصل مع (أحلام):

- مشغولة اليوم؟!

- كثيراً.. عندي موعد مع ثلاثة!

- عاهرة..

أغلق الخطَّ لكنَّ ضحكتها كانت قد سبقتني..

أتَّصل مع (هند):

- كيف أنت اليوم يا سمكتي؟!

- مشتاقة لصنّارتك..

- إنِّي آتٍ للصِّيد إذن..

- أنتظرك.. و؛ كلّ عام وأنت بخير بالمناسبة!

أستغرب:

- تعرفين أنَّ اليوم عيد ميلادي؟!

- لم أنسه أبداً..

- أنا قادم..

- وأنا بانتظارك!

أغلق الخطّ وأجلس قليلاً مع نفسي..

(هند) فتاة جميلة من النّوع الّذي ينتزعني من بين أنياب اليأس انتزاعاً.. (هند) فتاة لطيفة تذكر تاريخ ميلادي.. (هند) فتاة ألبِّي عبرها حاجاتي الجسديّة.. (هند) فتاة تُنسيني الكثير مما فقدته..

(هند) فتاة تعوَّضني..

أنهض من مكاني وأتّجه إلى غرفة نومي.. كعادتها منظّمة في فوضى! أنظر بجانب المرآة لأجد اللوحة إيَّاها الَّتي رسمتها منذ عام.. في الحقيقة لم أرسمها؛ أحضرتها بيضاء هكذا ورسمتُ فيها خطاً عريضاً أسود اللّون أشبه بإطار.. أطلقتُ عليها (اللّيل).. هذا شيء سيحبّه كلّ أولئك المتحذلقين الذين لم يأخذوا من الثقافة إلا شكلها!

أقترب من اللوحة وأنظر لها.. هكذا كانت حياتي.. كانت البياض فعلاً قبل أن أدور كالمشنوق وتهمد حركاتي.. هكذا كنت قبل أن أتحوَّل إلى غابة بدون أشجارها، وبحر بدون مائه، وكتاب بدون أوراقه..

أتذكَّر الماضي.. تنتابني تلك الغصّة ذاتها، تلك الغصَّة المبحرة في انتشال الضحك كله من جسدي.. تلك الغصّة التي تجعل منّي سراباً في سراب، وشبحاً مزّقته رصاصات عصابة أشباح عنصريّة مُعادية، ووطناً فقد عذريّته ذات اغتصاب!

أحاول أن أنسى كلَّ هذا وأنا أخرج علبة الشّطرنج الكريستالية.. ألعب دوراً مع نفسي وأخسر.. ألعب دوراً آخر وأفوز.. ألعب دوراً ثالثاً ينتهي بالتّعادل.. هُناك مشاعر متنافرة في آن واحد؛ أفرح أم أغضب أم أغضب بفرح؟!

اليوم عيد ميلادي..

تحت الماء يقف جسدي العاري.. أنظر له وأنا أبتسم؛ كم من أجساد عاينتَ وعايشت! كم من عاهراتٍ وفتياتِ ليلٍ جعلنك إنساناً حيًّا بعد أن كنت نصف جثة!

أنت تمقتهنّ؛ لكنّك تعيش لأجلهنّ الآن..

* * *

لم أكن هكذا قبل الفاجعة..

قبل هذا كنت أشبه بالصُّورة التي رسمتها لي أمِّي – رحمها الله – وأنا في رحمها.. أيَّام الجامعة تلك كنت أشبه بملاك إنسانيٍّ يستغرب البعض من وجوده.. أيَّام الجامعة الأولى أقصد؛ العامين الأولين..

من محاضرة إلى ندوة، ومن لقاء أدبي إلى أمسية شعريّة..

جميل أن تجد من يشاطرك اهتمامك، وقد كانت مجموعتي وقتها من أجمل ما بقي الآن في ذاكرتي.. شبَّان وشابَّات يحبون القراءة والكتابة والشّعر والأدب، يحبُّون العلم والمعرفة والتَّجوال بين الصَّفحات..

وقتها؛ كنت إنساناً حقيقياً!

لم يكن هناك أستاذ أو مدرِّس في الجامعة كلِّها إلاّ وعرفته.. الشّعر كان مفتاحاً به حُلّت كثير من مشاكلي وبسببه وجدت أبواباً لم أكن أعرفها؛ لهذا تخرَّجت قبل عام بتقدير امتياز!

الشِّعر مرآة لما يريده من حولي؛ وكلّما كتبتُ أو ألقيتُ قصيدةً سياسيةً أو غزليَّة وجدتُ تصفيقاً من اليدين والعينين والوجه والجسد؛ فيهم كلّهم!

إلى أن حدثت الفاجعة..

هذا ما غيَّرني..

هذا ما أضاع هويَّتي الَّتي أعرفها، هذا ما غيَّر الحال فيَّ إلى ما أنا عليه الآن..

.. هذا ما جعلني أخسر الكثيرين رغم حاجتي لهم!

* * *

أخرجُ من البيت باتّجاه (هند)..

أمرُّ على مطعم يختصّ بإعداد الوجبات الإيطاليَّة، أشتري الوجبة الأغلى ثمناً فأنا أعرف كم تحبُّها (هند)؛ كما أنَّني جائع..

لم أركب سيَّارتي فالبيت ليس بعيداً؛ إنَّ ثلاثة كيلومترات ليست مسافة مقنعة لي بالعدول عن المشي، كما أنَّ بي مرض المحافظة على لياقتي..

أشتري لها وردةً حمراء من متجر صغير قرب النّاصية، أحملها طوال الطّريق بثقة؛ لا يهمُّني النَّاس مهما نظروا وقالوا..

أصل إلى البيت، أصعد الدّرج حتّى الطابق الثَّاني وأدقُّ الباب، صوت كعب يسرع باتّجاهي، صوت مفتاح يدور في القفل، صوت (هند) ووجهها يطلّ عليَّ:

- أهلاً بك..

تقفز نحوي دون أن تمنحني أيّ فرصة للردّ.. لم أكن أستطيع الجواب فشفتاي ذابتا في شفتيها!

فمي كلّه غرق في فمها، هي؛ (هند)؛ أميرة الشهوة والنّشوة..

تسير أمامي وقد أمسكت يدي بيدها اليمنى، بينما يدها اليسرى تحتضن الوردة، تقبّل الوردة وتنظر لي، تنظر للوردة وتقبّلني.. فاتنة هي بقميص النّوم الأسود الشفاف القصير هذا؛ ذكيّة هي إذ تعرف تأثيره عليّ!

نجلس في الصَّالة.. تتعرّى أمامي وتعرِّيني.. لا وقت للوقت كما يقول (محمود درويش).. مشغول جداً أنا كما هي مشغولة.. بماذا؟! ليس هناك شيء مهم حقاً، لكن يجب علينا أن ننتهي مما يجب علينا أن ننتهي منه..

.....

تشعل سيجارة وتدخِّنها! رغم هذا أعيش معها وضعاً حميمياً في غاية الاستغراق، أفترسها كلُّها، تستعر رجولتي بتأجُّج أنوثتها الجمة.. نطير ونحلِّق معاً كساحرين على مكنسة عجيبة..

حلقات دخان! حلقات دخان!

كم تغيَّرت (هند) عمَّا كانت قبل، كم كانت حمقاء عندما كانت تهب جسدها للفتيات والنِّساء العابرات!

شكراً لي..

.. شكراً لجسدي!

* * *

«الجنس مجرَّد إرضاء للنّفس عندما لا يحصل الواحد منَّا على الحبّ».

(ماركيز)

* * *

4

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

أَمْشِي بِدُونِي

غائِباً عَنِّي

أَهِيمُ بِكُلِّ أَرْضٍ/كَوْكَبٍ/نَجْمٍ/سَمَاءٍ

فِي البَعِيدْ..

قَبْلَكِ

أَمْشِي بِدُونِي

نَاظِراً نَحْوَ الأَمَامِ - بِضَحْكَةٍ بَلْهاءَ -

مِثْلَ الشَّمْسِ فِي وَضْحِ الظَّلامِ

كَوَرْدَةٍ مَنْسِيَّةٍ

.. ذَاتَ انْبِثاقٍ للوُرُودِ بِرَحْمِ صُنْدُوقِ البَرِيدْ!

* * *

تنهضُ (هند) لوضع ما تبقَّى من الطَّعام في المطبخ..

تعود لي بعد دقائق وأنا مسترخ على هذا المقعد الطويل المريح، عيناي في السّقف، ملابسي على الأرض كملابسها، تنحني وتحملها وتضعها في حضني..

تجلس، تقترب منِّي، تحيط رأسي بيديها..

- أشكرك يا (عماد)..

أنظر نحوها:

- على ماذا؟!

- لم أكن أدري قبلك أنَّ الأمر هكذا مع الرجال.. كنت مجرَّد صدى فارغٍ لأجساد غيري من النِّساء!

أمسك ذقنها بأصابعي، أقرِّب وجهها منِّي وأقبِّلها:

- الشكر لكِ أنت سيِّدتي..

تضحك..

تصمت..

أصمت..

تقترب مني، تجلس في حضني، تلفّ يدها اليسرى حول عنقي وتسألني:

- ما بك؟!

- لا شيء..

- ما بك؟!

- لا شيء..

- ما بك؟!

- لا شيء..

تصمت!

أصمت!

تقول بخفوت:

- أعلم أنَّ الذِّكرى بعد يومين.. لكنّ هذا ليس مبرِّراً حتّى تتذكَّر الآن..

أتنهَّد بعنف.. كم أكره الذكريات!

- .. مرَّ عامان على ذلك الحدث؛ يجب أن تنسى..

تردف بها؛ فأحاول أن أبتسم وأنا أقول، ناظراً نحوها وهي تنهض، تتجه نحو السرير وتستلقي فيه:

- وماذا فعلنا قبل قليل؟! ألم يكن كلُّ هذا نسيان لما مضى؟!

- جسدك نسي وعقلك كذلك.. لكنَّ قلبك لم ينسَ بعد! أعرفك جيداً منذ عامٍ يا (عماد).. أعرفك وأعرف أنَّ الأمر ليس بهذه السُّهولة.. لكنَّك تحاول، وأنا أحاول معك من باب الشُّكر على الأقلّ..

أصمت وتصمت هي كذلك.. يطول الصّمت هذه المرَّة، ويباغتني صوت تنفُّسها العميق بعد دقائق....

أصمتُ، وأتذكَّر..

.. كم أنت قاسٍ يا وقت!

* * *

«لو أردت أن تضحك الأقدار؛ فاحكِ لها خططك المستقبليّة».

(وودي آلين)

* * *

5

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

أَتَعَلَّمُ الأَشْكَالَ

وَالأَلْوَانَ

وَاللَّهْجَاتِ

وَالضَّادَ الفَرِيدَةَ

وَالنَّهَارْ..

لَكِنَّنِي فِي آخِرِ المِشْوَارِ

لاَ أَحْظَى بِغَيْرِ جَهَنَّمٍ لِلجَهْلِ

تَحْرِقُنِي

وَتْنشُرُ فِي مَدَايَ النَّارْ..

قَبْلَكِ

أَنَا دُمْيَةٌ

.. فِي قَبْضَةِ الأَقْدَارْ!

* * *

ساعاتُ العمل مملَّة..

وما السَّاعة إلاَّ عقربان يركضان، وأعوام تمرّ وعقودٌ تمضي.. بحركات رتيبة يزدحمُ الملل فيها يقتربان من بعضهما؛ فإذا اجتمعا افترقا سريعاً.. يتربّعان على عرش الوقت؛ ومهمّتهما نشر الجنون في خيال كلّ من يحترف الانتظار!

غداً هو يوم الذّكرى الّتي أطفأت الشّمس..

غداً هو يوم الذّكرى الّتي أغرقتني في بحر الزّئبق..

غداً هو يوم الذّكرى الّتي جعلتني تمثالاً للاستسلام..

غداً هو يوم الذّكرى الّتي افترستني بطعناتها المتوحّشة..

.. غداً هو يوم الذّكرى الّتي أتقنت تعليمي الزُّهد في كلّ شيء!

* * *

أنادي زميلي في المكتب.. يضحك حين يراني أخرج من أحد الأدراج لعبة (السلّم والثّعبان)، يخاف

أن يرانا أحد؛ لكنّني أخبره أنّ عليه الخوف من اللّسع!

نلعب وأتركه يفوز عليّ.. أريد له أن يفوز عليّ فهذه هي الحال الّتي يمعنُ فيها كلّي ما أن يقترب التاريخ المشهود.. أريد له أن يفوز عليَّ، وأريد أن أرى الفرحة في عينيه، فأنا من طلب نقله إلى هُنا؛ لعلمي بحالته المزرية، ولمساعدتي له أحياناً بما أستطيعه دون تكلُّف، ولبغضي شعور الوحدة!

أكتب نصف قصيدة ثمّ أمزقها.. أفتح على موقع صور عارية وأحدّق دون أن أرى! أدردش قليلاً مع عاهرة عرفتها للتوّ على شبكة الإنترنت.. آخذ منها موعداً مسائياً يشبه موعدي مع (هند) البارحة..

أرسم قلوب حبٍّ وورود، أكتب أوّل حرف من اسمي باللغة الإنجليزيّة بعدّة أشكال وتصاميم، أكتب كلمة (للعهد) وأصل ما بين نهاية حرف الدّال الأفقيّة مع رأس حرف اللاّم الأوّل بعدّة طرق؛ لأكوّن وجهاً..

لعلّي أكون بتكراري فعل هذا أبحث عن وجه جديد؟!

أين وجهي؟!

ماذا حلَّ بملامحي في الدَّاخل والخارج؟!

أين أنا منّي؟!

حياتي ساحة ألغام، ولا أكفُّ عن تفجيرها وتفجيري..

حياتي سلسلة غريبة غير متكافئة من النِّساء، لا أكفّ عن اللحاق بهنّ..

حياتي مملّة.. حياتي غريبة..

* * *

يمرُّ من أمامي ذلك الزَّميل الأحمق..

منذ شهور وهذا المسكين يرتجف كلَّما تكلَّم مع زميلته في المكتب.. يحبُّها لكنَّه لا يكفُّ عن ممارسة القلق والخوف والارتباك كلَّما جاءت عيناها في عينيه.. أخبرته ألف مرَّة أنَّها فتاة، وهو رجل.. هو رجل! هي من ينبغي لها أن تسقط أرضاً من فرط التَّلعثُم، لكنَّهُ يُثير جُنوني حين يقول لي بتصميم:

- إنَّها مؤدَّبة جداً.. أنت لا تقدِّر ذلك!

* * *

أخرج من الشّركة وأتّجه مباشرة إلى البيت..

ألقي بنفسي كما أنا، بملابسي الرسمية، بربطة العنق السّوداء، بحقيبة الحاسوب المحمول؛ فوق السّرير؛ وأغط في نوم عميق!

* * *

أنتهي من لقائي مع (عبير) وأعود للبيت منهكاً..

غريبة هذه الفتاة القادمة من حواري الإلكتروني معها.. لم تخبرني أنّها قزمة، ولم أبدِ لها أيَّ امتعاض عندما رأيت قصر قامتها المدهش!

رأسها يتجاوز سرَّتي بقليل..

مع هذا قمتُ بالواجب كما ينبغي للرّجل أن يقوم به.. أقسمت لي أنّها لم تعش هذا الشّعور إلاّ مع أوَّل رجل ضاجعته في حياتها، والّذي كان يحبُّها حباً جهنَّميا؛ ولكنه في النِّهاية أحرقها بخيانته مع أقرب صديقاتها لها..

لهذا قرّرت ألاَّ تحبَّ من جديد؛ وأن تعطي جسدها لكلّ من يشاء!

لم يتجاوز لقائي معها السّاعتين..

على الأقلّ؛ أخرجتُ نفسي من دوَّامة التّفكير والذّكريات الَّتي لا ترحم..

على الأقلّ؛ جربّت جسداً جديداً..

على الأقلّ؛ منحت فتاة غريبة عنِّي شيئاً يتجاهله الكثيرون..

على الأقلّ؛ قلتُ لها - بجسدي - ما معنى عطر الرجولة حين ينساب في زجاجة الأنوثة؛ حتّى لو كنت أنا طويلاً بجسدٍ رياضيّ..

.. وكانت هي قزمة!

* * *

6

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

يَحْيا فَمِي فِي وَهْمِهِ

وَيَجِيءُ نَحْوَ لِسانِي الثَّرْثَارِ

حُكْمُ المَحْكَمَةْ..

قَبْلَكِ

صَوْتِي مُعَارٌ

وَالكَلاَمُ مُزَيَّفٌ

أَمَّا التَّعابِيرُ الَّتِي فِي خَاطِرِي وَبِنَاظِرِي

فَتَسَاقَطَتْ سَهْواً - بِكُلِّ تَعَمُّدٍ -

.. مِن وَحْيِ تِلْكَ التَّرْجَمَةْ!

* * *

صحوتُ..

وبنظرة سريعة إلى التّقويم المعلّق على الجدار، نظرتُ..

نهوض بطيء من السّرير، دخول بطيء إلى المرحاض، خروج بطيء من المرحاض، جلوس بطيء على مقعد في غرفة الضّيوف؛ اخترته بعشوائيّة..

قبل عامين من اليوم؛ سُدَّ ينبوع..

قبل عامين من اليوم؛ توقّفت إرادتي..

قبل عامين من اليوم؛ كان انهياري..

قبل عامين من اليوم؛ اختنق هوائي..

قبل عامين من اليوم؛ تفجَّرت خلاياي بصرخة ملتاعة مذعورة غير مصدّقة:

.. ماذا؟!

* * *

الكابوس؛ إمعانٌ في حلم.. ورسمُ ما لا تصلُ إليه أنامل الحقيقة.. ووجود اللاوجود هُناك؛ في أرضٍ جرداء دامسة؛ شموسها سوداء!

* * *

أتذكّر هذا قبل عامين:

وقفتُ معها هُناك عند الجسر..

- أحبُّكِ!

- أحبُّكَ!

- أنت وردتي الربيعيّة..

- وأنت إيقاظي من الخريف..

برجاء:

- اهتمِّي بنفسكِ..

- أنت بداخلي، سأهتمُّ بك؛ لِيُهتَمَّ بي عبرك..

أضغطُ على يديها:

- إنها (فلسطين) الَّتي ستذهبين إليها..

- كلِّي شوق عفويّ لها، وجنون خالص..

- أعلم أنّك كنت هناك من قبل، لكن احذري!

- لا تقلق..

قلبي ينبض بشدَّة:

- إنها (فلسطين) الَّتي ستذهبين إليها.. إنِّي خائف!

- حبيبي أنت.. هذه أرض مقدّسة..

- لكنّ بها أفاعٍ سامّة، ومخالب من صقيع!

- سأكون بعيدةً عنهم تماماً..

- تحاشيهم قدر استطاعتك..

تطمئنني:

- سأحاول ألاَّ أراهم أصلاً..

- لن أحتمل فكرة أن يصيبك شيء..

- أخبرتك ألاَّ تقلق..

تضغط على يديّ:

- .. لم ترتجف هكذا؟!

- لا أدري..

- هذا الشّيطان يحاول محاصرتك بما يتقنه في هذه الحياة؛ فدعك منه..

- أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم..

أنظر حولي، أعداد هائلة من الأشخاص، كلّهم يريدون الذّهاب والانتقال من هذه الضفّة من الجسر؛ إلى الأخرى..

مكدّسون حولنا، منهم من جلس، منهم من وقف، منهم من اضطجع على جنبه أو على حقيبته أو على صرّة كبيرة نوعاً ما..

- أحبُّكِ..

- أحبُّكَ..

- كم ستمكثين؟!

تضحك:

- هذه هي المرّة السادسة الّتي تسألني فيها هذا السُّؤال..

كأنّي لم أسمع:

- كم ستمكثين؟!

- أسبوعان فحسب.. لا تلمني إن تجاوزتُ الوقتَ بيومين أو ثلاثة؛ سيكون التّصريح الأمنيُّ هو السّبب!

- .....!

- .....!

* * *

أفهمك رغم الصَّمت

بل أفهمك عبر الصَّمت

كأنَّنا اكتشفنا لغة تخصُّنا وحدنا!

(غادة السمَّان)

* * *

7

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

كُلِّي وَحِيداً أَزْدَرِيني

أَزْدَرِي قَلْبِي

يُفَتِّشُ عَنْ فَتاةٍ

لاَ يَهُمُّ جَمالُها أَوْ طُولُها

أَو شَكْلُها أَوْ عَقْلُها

فِي شَارِعِ العُشَّاقْ..

قَبْلَكِ

كَالوَحْشِ فِي جُوعٍ مُرِيعٍ

أَنْتَشِي

إِنْ جَاءَ فِي بَالِي خَيالٌ لِلخَيَالِ

وَصُورَةٌ لِفتَاةِ حُبٍّ

أَجْهَلُ اسماً يَمْتَطِيهَا

.. فِي رُؤى الأَحْدَاقْ!

* * *

كنتُ في قسم الهندسة عندما أتاني الاتِّصال:

- ألو..

الصَّوت حزين، باكٍ، أحسست ببحرِ دموعٍ ملحيَّةٍ يتدفق من سمّاعة الهاتف..

أجبت:

- نعم..

- هل أنت (عماد)؟!

- نعم، وأنتِ؟!

- لله ما أخذ وله ما أعطـ...

- ماذا حدث؟! من أنت؟!

- (سندس) ماتت!

* * *

موسيقى صاخبة تدبُّ فجأة من كلّ مكان حولي، غربان مسعورة تهجم عليَّ بلا رحمة، غرباء بمعاطف طويلة سوداء يحملون وعوداً بالموت في مناجلهم..

همهمات، تمتمات، صرخات، ضوضاء، أصوات عنيفة، كؤوس زجاجية مليئة بالدمّ، أمواج تنتفض متوجّعة وتبصق ازرقاقها إلى السَّماء الّتي تحدَّق في البحر بدهشة، ضحكات صفراء تتدلع من أقبية سرية تحت الأرض، جسد مفخّخ، انفجارات نوويّة داخلي:

- ماذا؟!

- البقيَّة في حياتك..

- من أنتِ؟!

- أنا (رؤى)..

- شقيقة (سندس)؟!

- البقيَّة في حياتك يا (عماد)..

- كيف؟! من؟! متى؟! ماذا حدث؟!

- استشهدت..

- لم أفهم!

- ماتت!

- لا أصدِّق!

- بل صدِّق..

ثمَّ بعصبيَّة باكية:

- .. لقد قتلها قنّاص برصاصة في رأسها!

* * *

الموت؛ اختصار العمر وغربة الجسد.. منحُ الروح تأشيرة خروج إلى أجل غير مسمّى.. عدوّ السّعادة والحب والأوطان، وأمنية المقهورين المتعبين المرهقين.. سفر أخير من حياة وغذاء وأكل وعشق وعمل وضحك؛ إلى مترين من دودٍ، وتراب!

* * *

«لا شيء يرسِّخ الأشياء في الذَّاكرة ويثبِّتها؛ كالرّغبة في نسيانها».

(ميشيل دي مونتين)

* * *

- لا أصدِّقكِ..

- جاء أحدهم من صحيفة (القدس العربي) وصوَّرها..
- صوَّر جثَّتها؟!
- نعم، وستقرأ الخبر وترى الصُّورة غداً في الصَّحيفة..
- لا أصدِّقكِ..
- عليك اللَّعنة! (سندس) ماتت وما زلت غير مصدِّق؟!

* * *

«إنَّك لا تعي حقاً معنى الموت؛ إلاَّ حينما تعرف الحبّ».

(كاترين هثواي)

* * *

8

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

أَضْغاثُ أَيَّامٍ أَعِيشُ

وَوَهْمُ سَاعَاتٍ يَمُرُّ

بِمِعْصَمِي..

قَبْلَكِ

عَبَثُ الدَّقائِقِ كُلُّهُ

يَحْتَاجُنِي/يَجْتَاحُنِي

كِي يَرْمُقَ الوَجَعَ المُرَابِطَ

فِي عُيُونِي

فِي جُنُونِي

فِي حَيَاتِي

فِي رُفاتِي

.. فِي دَمِي!

* * *

«استشهاد فتاة في (القدس) برصاص قنّاص إسرائيلي»!

قرأت هذا الخبر كثيراً قبل اليوم..

مررتُ عليه بنظري ألف مرَّة، أحياناً كان هناك مصابون، أحياناً كان هناك آخرون لم يكلِّف محرِّر الخبر نفسه بعدِّهم، أحياناً كان هناك رجال بأذرع مشوَّهة أو بأجساد سافر نصفها إلى الثلاَّجات، نساء فقدن ما في بطونهن أو جسومهنّ، أطفال ذاقوا الشّيخوخة مبكِّراً، شيوخ جرَّبوا طعم الهرب والرَّقص بين رصاصتين، أو دبّابتين، أو مروحيَّتين!

«استشهاد فتاة في (القدس) برصاص قنّاص إسرائيلي»!

الصَّحيفة أمامي، وأنا في البيت، وعيناي قنبلتان دمويَّتان على وشك الانفجار، ووجه (سندس) كما هو، كما أعرفه منذ عام كامل؛ يطلُّ عليَّ شاخص العينين، ينظر نحو اللاّمكان، اللاّزمان، اللاّأحد..

فيم كانت تفكِّر لَمَّا قتلها؟!

فيم كان يفكِّر لَمَّا قتلها؟!

فيم كنت أفكِّر لَمَّا قتلها؟!

* * *

أتذكَّر كلَّ هذا..

كلَّ ما حدث قبل عامين؛ يمرُّ في ذاكرتي الآن؛ بلا أيِّ شفقةٍ عليّ!

كم نحتاج أحياناً لشيء يبعث النسيان مِنَّا كعنقاء منسيَّة..

ما أجمل أن يكون النِّسيان إرادياً؛ أحياناً أيضاً!

أتذكَّر كلَّ شيء..

حالة الهلع، والرّعب، والبكاء، والدُّموع، والانهيار العصبيَّ..

سقوطي أرضاً مع أدواتي الهندسيّة، مع طاولتي بما عليها من رسوم، اندفاع زملائي نحوي وحملي إلى العيادة الجامعيَّة..

أتذكَّر كلَّ هذا.. أخبروني كيف كان جسدي كلُّه يرتجف، قابضاً بيديّ الاثنتين على الهاتف المحمول، رافضاً العالم، ساخطاً على الكون كلِّه..

أتذكَّر؛ وأخبروني؛ كيف غدا وجهي أصفر اللّون، أحمر اللّون، أبيض اللّون تماماً؛ وكيف انطلق لساني باسمها بلا وعي..

.. كالمحموم!

* * *

«مثل الحلم راحوا».

(فيروز)

* * *

عامان مرَّا على وفاتها..

وقتها؛ بقيتُ غير مصدِّق عدَّة أيَّام..

نعم؛ الصَّحيفة في يدي، وأعلنوا في الجامعة أنّ هناك طالبة استشهدت في (القدس) المحتلَّة، وأعلنوا أنّ الجثمان سيصلُ بلادنا قريباً..

لم أصدِّق، حتَّى وصول الجثمان إلى (عمَّان)..

استقبلته في المطار مع أهلها بعد أن بقي صوتي طوال الوقت رابضاً في هاتف شقيقتها، كنت بحاجة لأن أراها، كنت بحاجة لأن أصدِّق بعينيَّ وحواسي أنَّها انتقلت من مناخ قلبي وأجوائه المعطَّرة بها؛ إلى هناك؛ حيث الصَّمت والملائكة والاغتراب..

كنت بحاجة لأن أراها؛ لأصدِّق أنَّ هذا الجسد الشَّاحب المسجَّى أمامي؛ كان يوماً ما؛ حبيبتي أنا..

كنت بحاجة لأن أتعذَّب قليلاً؛ فهكذا سأؤمن حقاً أنَّها صارت فوق السُّحب، وأنَّ القدر حرمني منها، وحرمها منِّي؛ وحرمنا من كلِّ الوقت الَّذي كنا نريد ممارسته معاً!

* * *

«لا يموت النَّاس بالنسبة إلينا وقت موتهم، بل يستحمُّون في هالة من الحياة لا صلة لها بالخلود؛ بل

باستمراريَّتهم فينا كما أيَّام كانوا أحياء، وكما لو أنَّهم مسافرون».

(مارسيل بروست)

* * *

9

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

قَلْبِي كَأَيَّةِ قِطْعَةٍ أُخْرَى

مِن الجَسَدِ الَّذِي أَنا فِيهِ

لِكنَّ الفُرُوقَ

جَمِيعَهَا

قَدْ لُخِّصَتْ فِي أَنَّهُ هُو سَيِّدٌ

لِلنَّبْضْ..

قَبْلَكِ

قَلْبِي مُجَرَّدُ وَرْدَةٍ

مِنْ دُونِ أَوْراقٍ

وَحَانَ قِطافُها..

.. قَلْبِي يَبابٌ مَحْضْ!

* * *

واقفاً خلف المنصَّة، وأمامي تجلس هي، بيدها الوردة الحمراء الَّتي أحضرتها لها هذا الصَّباح من المتجر القريب من البيت.. أقول:

«دامَ فجرُ أنوثَتِكِ..

.. تابُوتاً لِخريفي!».

* * *

أستطرد، وبكلِّ جوارحي ينتفض عشقي:

«دامَتْ أنوثَتُكِ فُرشاةً من نور، ترسُمُ ملامِحِي فوقَ صفحةِ الظِّلام كشمسٍ آدميّة، تعبِّئ السَّعادة داخِلِي كزجاجةِ عطرٍ من لحم ودمّ، تشدُّنِي نحوَ الأرضِ بثباتِ الأشجارِ الَّتِي تصمتُ بخشوع؛ حين تعرف أنّ أخواتٍ مثلَها أصبحنَ كراسيَ وطاولات!».

* * *

أنظر، تلوِّح لي بيدها من بين الجمهور:

«دامَ وجهُكِ قاتِلاً لِغربة الضّوء.. باعِثاً رحيقَ النِّهار فِي مسامي، خالِعاً عنِّي مِعطفَ القلقِ على

مُستقبلِ البشريَّةِ مِمَّا أراهُ مِن وجوهٍ، لا أميِّزُ بينها وبين غيرِها إلاّ بحجمِ الأنف ولونِ الأسنان.. دامَ حَليباً هكذا؛ مُتسلِّلا وحدهُ مِن أعماقي الغاطسةِ فيكِ، إلى وجوديَ الَّذي يستَجمِعُ وجودَهُ مِن وُجُودِنا!».

* * *

يستحيل المكان من حولي إلى عينيها فقط، لا أرى سواهما:

«دامَت عيناكِ مِنصَّة إطلاقِ صواريخ؛ فِيهما تتحقَّقُ النَّبوءةُ القديمةُ عن السَّماءِ الَّتِي ضاجعَت البحرَ فكانَتِ النَّتِيجَةُ ما أراهُ الآنْ.. دامَ عِناقُهُما لِعينيّ وأجفَانِي، ولذاكِرَةِ التَّارِيخِ الَّذي اكتشفَ حُمقَ قواميسِهِ المكتوبَةِ خِصِّيصاً فِي العيونِ الملوَّنَة.. دامَ نهارُهُما المُحتوي زُرقَةَ الفِردوس، المُغلَّفُ بالرَّبيعِ، المُتخَمُ بالدّفء، المُمتلِئ بِالأمطارْ!».

* * *

تحديقي لها وحدها فقط، وبصري يجوبُ وجهها:

«دامَت شفتاكِ عالِيَتا الخُصوبَة.. تُنجِبانِ مِن شِفاهِي فِي كُلِّ قُبلةٍ مَزيداً مِن القُبل؛ ترتكِبانِ معهُما قنابلَ أكثر، فيتفجَّر كيانِي كلُّهُ ويتحوَّلُ مِن أشلاء مُتناثرة إلى قلبينِ يغرفُ كلُّ واحدٌ مِنهُما روحَهُ مِن الآخر.. دامَتْ شِفاهُكِ؛ فيهِما يخفِقُ عُمري الَّذي بكِ يغدُو مثلَ نارٍ؛ وأنتِ الفتيل!».

* * *

نظراتي تتسلَّق شالها الأرجوانيّ:

«دامَ شَعرُكِ أرضَ سنابلَ وفضاءَ قمحٍ وفناجينَ بُنٍّ.. دامَ غِطاءً لِي فِي العتمَةِ مِن ضوءِ الغرفةِ المشحُونِ بالنُّورِ الكئِيب؛ أرتجِفُ فِي حضرتِهِ مُتخيَّلا إيَّاه شمساً أمسِكُها بأنفِي وأشمُّها بيدَيّ.. دامَ شهدُهُ قاهِراً للشِّيخوخة وأرقِها، وللتغضُّنِ وجفافِه، وللكبرِ وقحطِه، وللدِّمعات وانسِكابها، وللشَّالَةِ المحظوظَةِ باستِلقائِها على خُصلاتِكِ العطرة!».

* * *

بأصابعها ترسم لي قلباً يحبُّني:

«دامَتْ أنامِلُكِ رُسُلَ سَلام وطُمأنينَة.. تجِدُ أصابعِي معها ميناءَها الَّذِي بحثَت عنهُ بِما فيهِ الكَفايةَ بينَ النِّساءِ دُونَ أن تجِدَ إلاَّ الصِّحراء المُتغضِّنَة.. دامَتْ هذِهِ الأنامِلُ الممتشِقَةُ رِقَّةَ الوردِ حِينَ ينمُو فِي السَّحاب.. دامَتْ الأغنِياتُ الصَّامِتَة؛ حين أطوِّقُ يدَكِ بِيديَّ، فيُشنَقُ البُرود، وتتسكَّعُ الحياةُ فِي جنباتِنا!».

* * *

جلستها تثيرني وأنا على المسرح ما زلت أحكي؛ وأناظرها:

«دامَ جسدُكِ المزروعُ بالمحار؛ ينهشُ الظَّمأ الَّذِي يزدحِمُ بِعَطَشي تُجاهه.. دامَ جسداً يحفلُ بالصَّدى إذ أرى مِنْهُ نُسخاً أهذِي معها فِي كلِّ مكانْ.. دامَ ثورياً على قائمةِ الأجسادِ وَملامِحِها وأشكالِها وطُقوسِها، مُتفرِّداً بأقحوانِهِ ونرجِسِهِ وجوريِّه وياسَمينِهِ، مَصنوعاً مِن امتزاجِ الحريَّةِ بالرِّيح، ثمِلاً بِتفاصِيلِهِ الَّتِي تصهَلُ بِسَبَبِها خيولُ الهندَسَة!».

* * *

أحبُّها جداً:

«دامَ عشقُكِ الباعِثُني مِن قلبِ طعناتِ التشرُّدِ والشُّرود، يُرسِلُنا كُلَّما تحرَّكت عقاربُ وأفاعِي الوقتِ إلى عوالِمَ مِن حريرٍ وطِيب، يُحوِّلُ البشرَ الَّذِين حولَنا إلى عبيدٍ وسبايا، يحوِّلُ الهواءَ إلى مرضٍ يستنشِقُنا فيشفى، يحوِّلُ السكَّرَ إلى مادَّةٍ غنيَّةٍ تحيا حلاوتُها مِن تساقُطِنا علينا، يُحوِّلُ المطرَ إلى كيانٍ يهطِلُ باتِّجاهِ الأعلَى!».

* * *

أحبها جداً، جداً:

«دامَتْ روعَتُكِ نوماً لَن أفيقَ مِنهُ وأكتشِفَ كغيرِي أنّ الأضغاثَ هِي حَياتِي الرّسميَّةُ وتوقيعُها الدِّامي.. دامَت روعَتُكِ سماواتٍ وأوطاناً وأعماراً وقصائِد؛ فِيها نكونُ أنا وأنتِ فاتِحَين جَديدينِ وعالَمَينِ فِي عَالَمْ.. دامَتْ ملاذاً لَنا من البُكاءِ الَّذِي يُرهِقُنا بتخيُّلِ أنّنا كالتِّبغ بين شفاهه، ومِن الغِيابِ الَّذِي يُهلِكنا كلّما ازدادَ يقينُهُ بأنّنا قاربٌ مِن ورقِ جرائِد؛ في بحرِه!».

* * *

أختمُ نصِّي، وهناك قبلةٌ أرسلها لها من بين السّطور:

«.. ما دامَ جمالُكِ لهذا الحدّ مُفترِس؛ فسأبدأ منذ الآنَ بحسابِ عدد الفتياتِ والنِّساء اللاّتي فِي معدتِه!».

* * *

..

..

..

ساخرٌ أنت، وقاسٍ أيُّها القدر..

لم تخبرني أن أغيِّر عنوان النصَّ من (ديمومة)؛ إلى (مؤقَّتاً)!

لم تخبرني أنَّ كلَّ هذا سيتبخَّر؛ برصاصة!

لم تخبرني أنَّ شوقها لزيارة الأرض الَّتي تعشقها؛ سيقتلها!

لم تخبرني أنَّني سأتغيَّر بعد هذا إلى شيء لا أعرفه أنا؛

.. نفسي!

* * *

10
(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

لاَ شَكْلَ لِي

لاَ وَجْهَ فِي وَجْهِي

وَلاَ رُوحٌ تُصِرُّ عَلَى الحَياةِ

بِرَغْمِ دَمْعاتِ الكَفَنْ..

قَبْلَكِ

إِنْ جاءَ عُمْرٌ

يَرْتَجِي مِنِّي ابْتِساماً

خاطِفاً

وَضَحِكْتُ لَهْ؛

.. خَافَ الزَّمَنْ!

* * *

ما زلتُ في غرفة الضُّيوف؛ جالساً على المقعد الَّذي اخترته بعشوائيَّة..

الذِّكريات؛ بندقيَّة روسيَّة ممتازة لاغتيال أشلاء البسمات!

الذِّكريات؛ بحثٌ محمومٌ عن قلم حبرٍ في مصنع لإنتاج أقلام الرَّصاص!

الذِّكريات؛ تستهلكني كلفافة تبغٍ!

رحمكِ الله يا (سندس)..

أتذكَّر كلَّ ما تذكَّرتُهُ، وتمرُّ مئاتُ المواقف واللَّحظات في خيالي؛ من أوَّل يوم عرفتها فيه وقد كانت زميلتي في محاضرة، إلى اكتشافي روعة أنوثتها واكتشافي تشابهنا مع مرور الوقت، إلى وقوعي في غياهب حبِّها الشَّهي، إلى أوَّل مرَّةٍ خرجنا فيها معاً، إلى أوَّل مرَّة قبَّلتها فيها ذات درج قديمٍ تحت رذاذ، إلى كلِّ لحظةٍ سكنتُها فيها، وسكنتني..

لم يحدُث بيننا أكثر من القبل.. أنا لم أطلب أكثر، وهي لن تعطي أكثر!

الجميل أنَّ هذا كلَّه كان سراً بيننا فقط؛ لم يعرف أحد بما كان يدور بيننا..

أبداً!

حتَّى عندما رحلت؛ صُعق الكثيرون عندما علموا بعلاقة الحبِّ الَّتي جمعتني معها منذ أوَّل عام دخلت فيه الجامعة؛ إلى حين استشهادها..

.. كم هو مؤلم غيابك يا (سندس)!

* * *

أتذكَّر كيف كنتُ منذ عامين:

جلوسي وحيداً في البيت أثار جنوني.. (سندس) عند ربِّها كما هي أمِّي منذ بداية نشأتي، أصدقائي يتحاشون الكلام معي لمعرفتهم بعواء الذِّئاب الَّذي تصرخه ذاتي في وجهي كلَّ ساعة، أبي غائب عنِّي منذ عام، فرَّ من الحياة إلى أمِّي؛ هناك!

* * *

ما نفع كلِّ هذه الثَّروة الطائلة الَّتي ورثتها؛ بدون هؤلاء الثَّلاثة؟!

ما نفع هذا البيت الجميل الأنيق الفاخر؛ بدون كلمة حنان، ونظرة حبّ، ويد حبيبة، وقبلة أم، ودعاء جميل من الأب عقب قبلة اليد الصَّباحيَّة والمسائيَّة؟!

ما نفع سيَّارتي الحديثة الفارهة؛ إن لم ولن يركبها معي أحدهم بعد اليوم؟!

* * *

أنهضُ من مكاني ببطء، أتَّجه نحو غرفتي، أفتح صندوقاً موجوداً في خزانتي؛ لم أفتحه منذ العام الماضي؛ إلاَّ بنفس تاريخ اليوم..

أخرجُ نسخة (القدس العربي) تلك؛ أعيد قراءة الخبر؛ ربَّما هذه هي المرَّة المليون الَّتي أنظر فيها للسُّطور، والوجه المتحجِّر، والعينين الجامدتين، والكلمات الرّسميَّة الباردة الخالية من المشاعر؛ من جديد..

أتذكَّر كيف حوَّلني موتها وقلب مفاهيمي كلَّها.. أتذكَّر كيف بعد الجنازة أشعلتُ أوَّل سيجارة لي في حياتي.. أتذكَّر كيف ضاجعتُ أوَّل أنثى في حياتي بعد هذا بشهر تقريباً!

.. كنت بحاجة لأن أنسى، كنت بحاجة لجسدٍ يتنهَّدُ بأكمله، كنتُ بحاجة لسكاكين أكشطُ بها حزني عنِّي!

* * *

«يجب استغلال أكبر عدد من النِّساء الغبيَّات لنسيان امرأة ذكيَّة».

(ميشيل أوديار)

* * *

.. كنتُ بحاجة إلى النِّسيان لئلاَّ أنفجر؛ مثل بالون وضعوا فيه بحر!

* * *

قدماكِ مُتعبتان

في حُلَّةٍ مزدانةٍ

مُنهكةٌ؛ أنتِ

لأنَّكِ تجولين

ما زلتِ، في بالي

(منى ظاهر)

* * *

11

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

يَسْتَكْشِفُ اليأْسُ العَنِيفُ

مَجَاهِلِي

وَيَدُورُ فِي فُلْكِي

وَفِي كُلِّ الشَّرَابِينِ الَّتِي مَكَثَتْ

بِتِيهِ الأَمْكِنَةْ..

قَبْلَكِ

فِي بَسْمَتِي لَيْلٌ

وَفِي صَوْتِي انْطِفاءٌ

ثُمَّ فِي كُلِّ السَّعَادَةِ دَاخِلِي

.. نَهْرٌ وَنَبْعٌ مُحْزِنَةْ!

* * *

سجائر، سجائر، سجائر..

قبلات، قبلات، قبلات..

كؤوس، كؤوس، كؤوس..

عناق، عناق، عناق..

سهرات، سهرات، سهرات..

نساء، نساء، نساء..

مضاجعة، مضاجعة، مضاجعة..

.. سيمفونيَّة بدأتها بعد شهر من سفرها الجسديِّ عنِّي؛ ولا زلتُ أعزف مقطوعاتها كلَّها حتَّى الآن!

* * *

صورتها أمامي، وورق الجريدة، واندفاع الذّكريات بكلِّ هذا النّبض؛ أغضبني، أشعر الآن أنِّي على وشك الاختناق؛ لا بدَّ من شيء أفعله الآن..

أتَّصل على مجموعة من الفتيات، يأتين لي بعد ثلاث ساعات قضيتها في حوض الاستحمام الرُّخامي، أشاهدُ فيلماً أجنبياً مليئاً بالدَّماء وانفجارات السيَّارات، ولقطات الجنس المدسوسة بين كلِّ

مشهد ومشهد..

.. حفلة جماعيَّة أقيمها وحدي؛ وسبعُ فتيات!

لا أنكرُ أنَّ كلاًّ منهنَّ تفعل ما تفعل مقابل ما أمنحها من نقود، لكنَّ هذا ليس مهمًّا بالنسبة لي، يُرضيني قبولهنَّ جميعاً بإطلاقي اسم (سندس) على كلٍّ منهنّ..

لأنِّني كنتُ أحبُّها، لأنِّني كنت أعشقها، لأنِّني كنت أشتهيها، لأنَّني كنت أريدها، لأنَّ شمسها غربت قبل أن يحدث بيننا أيُّ شيء سوى بعض القبلات المسروقة فحسب؛ كلُّ هذا فجَّر داخلي شهوة غريبة للانتقام..

كيف؟!

لا أعلم..

مِمَّن بالضَّبط؟!

لا أدري..

نعم؛ ممارستي الجنس برومانسيَّة بالغة لا أدري سببها، ومناداة العاهرات لي باسمي، ومناداتي لكلٍّ واحدة منهنَّ باسم (سندس)؛ لا يمنع أنَّني أرى في المضاجعة شيئاً مهيناً للجنس الأنثويِّ كلِّه!

كأنِّي حين أضاجع الواحدة منهنَّ؛ أضاجعهنَّ كلّهنّ.. شعور حقير مرير وممتع! جسد عن ثلاث مليارات جسد.. خذي أكثر.. استقبلي أكثر! افتحي ذراعيك لكلّ هذا؛ ملايين الأطفال سيلاقون حتفهم إلاَّ واحداً!

مجرمون نحن؛ كلُّنا..

هل تعرف أنَّ كلَّ إنسان في هذه الحياة مجرم بالفطرة، وسفَّاح بالسَّليقة؟!

هل تعلم أنَّه عندما أتيت إلى هذه الأرض كنتَ في رحم والدتك مع جنين آخر يشبهك كثيراً؟!

هي خليَّة واحدة لا غير.. خليَّة من المفروض أن يأتي منها توأم، لكنَّك أنانيٌّ وغد، كنتَ أقوى من ذلك المسكين وقتلتَه!

أنت عشت، بينما نزل هو إلى المرحاض بعد عددٍ غير محدَّدٍ من السَّاعات..

.. كلُّنا مجرمون، وأنا معنا!

* * *

سافلٌ هو الجنس حين يكون وسيلةً لتحقيق الذَّات، لإيجاد شيء ضاع، لملاقاة مصير يخشى المرء ألاَّ يولد مرَّةً ثانية لأجله!

* * *

«شربت الخمر لأنسى ولكي لا أرى رسمكِ.. ولكن هيهات! عندما سكرتُ صرتُ أراكِ مرَّتين».

(مارسيل آشار)

* * *

12

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

فِي الصُّبْحِ أَصْحُو

نَائِماً

وإِذَا أَتَى وَقْتُ المَسَاءِ

أَفِيقُ مِنْ نَوْمِي لأَبْقَى غافياً

فَالصَّحْوُ نَوْمُ الحُلْم..

قَبْلَكِ

كابُوسِيَ المَشْؤُومُ كُلَّ الوَقْتِ

يَسْرِي بِي

فَمَا هُوْ دَرْبُ هَاتِيكَ العَدَالَةِ

إِن غَدا قَانُونُهَا

.. أَيْقُونَةً لِلظُّلْم؟!

* * *

على مكتبي من جديد..

أشعلُ سيجارةً وأدخِّنها، وللمرَّة الثالثة هذا اليوم يمرُّ ذلك الشاب البدين الملتحي من أمامي؛ ناظراً نحوي في وجوم، وحدَّة، وعصبيَّة..

يوقفني كلَّ يوم، يخبرني أنَّ التدخين حرام، وأنَّ عليَّ الرجوع إلى الله؛ وكلَّما فعل بي هذا أخرجتُ سيجارة وأشعلتُها وفثثتُ دخانها في وجهه..

لم لا يتقبَّلني كما أنا وحسب؟!

لم يصرُّ عليَّ أن أكون كما يريد، رغماً عنِّي؛ تماماً كما تفعل (هيئة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر) في المملكة العربيَّة السُّعوديَّة؛ والَّتي يرتكب رجالها فظائع غريبة بحقِّ الدِّين وباسمه؛ إذ ينفِّرون المرء من كلِّ شيء حين يجبرونه على فعل كلِّ شيء.. أذكر أنَّ صديقاً اقترح ذات يوم أن تكون هناك هيئة عالمية اسمها (هيئة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لهيئة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر)!

لو أنَّ النصيحة أتت من شخص آخر لقبلتها؛ لكنَّني أعرفُ عنه ما لا يعرف أنَّني أعرفه عنه.. من جهاز الحاسوب الخاصّ بي دخلتُ إلى حسابه في الشّركة؛ وعرفت بشأن تلك الصُّور الإباحيَّة الَّتي يحتفظ بها في جهازه..

لم أشأ أن أخبره بشيء عني، وعن بعض الخبرات التي اكتسبتها عندما كنت مراهقاً، من بعض الأصدقاء، الذين لم يبخلوا بتعليمي كلّ شيء عن الاختراق..

.. فليقل لي ما يشاء؛ وإن زاد حدوده سأفضحه؛ ولتبدأ الضّغينة بيننا فلا يهمُّني؛ إنَّني زاهد في كلِّ شيء كما قد أسلفت!

* * *

«تقبّلوني كما أنا، لا كما تريدون لي أن أكون».

(أحمد العايدي)

* * *

«لقد قرَّرت وهذا يكفي، أن أحارب من أجل ما أريده، وأن أكون ما لا يريده الآخرون لي».

(أوبرا وينفري)

* * *

محفظتي مزدحمة بالنُّقود، والبطاقات الائتمانيَّة..

حساباتي البنكيَّة كثيرة، ووالدي مات مخلِّفاً لي مجموعة كبيرة من العقارات الجاهزة، الَّتي يأتيني منها مردود شهري يكفي عشر عائلات..

وأنا شاب وحيد!

نعم؛ أقضي على لعنتي هذه أحياناً بفتاة أو باثنتين، أو بحفلة كما فعلتُ بالأمس، أو بقصيدة نثر أو قصيدة عاموديَّة ألقيها في مسرح أو في قاعة جامعيَّة؛ لكنَّ الوحدة هي السَّلام الوطني لدولتي المنعزلة!

عملي في الشَّركة كمهندس معماري متخصِّص بتصميم الجسور؛ هواية لا أكثر، وحتَّى لو كنتُ مديراً هنا؛ إلاَّ أنِّي مدير فعَّال؛ وأعمل أكثر ممَّن يعملون تحت أمرتي!

يكرهني البعض لاستلامي هذا المنصب بهذا العمر؛ إلاَّ أنَّني لا أهتمُّ البتَّة بهم؛ لماذا لم يرثوا شيئاً من آبائهم؟! لماذا لم يأتِ حظّهم عظيماً مثلي؟!

عندي أموال أستطيع بها شراء الشَّركة كلِّها؛ لكن لا بدَّ من العمل لئلاَّ أهوي في فجوة الجنون صدفة، ولئلاَّ يلتهمني تمساح الملل بدون قصد..

هل سيطلق عملي هُنا سراحي من الأنفاق الَّتي وضعتُ نفسي داخلها؟!

هل تخصُّصي في بناء الجسور هندسياً؛ سيوصلني إلى جسر أتوجَّه فيه من الاحتضار؛ إلى القشَّة الَّتي تعلَّق فيها غرقى سفينةٍ مثقوبةٍ؛ ونجوا؟!

* * *

على مكتبي ما زلت..

أمامي تناثرت الأوراق الضخمة، والمساطر، والفراجير، وأدوات الرَّسم؛ كأوراق شجرة خضراء سئمت ثوبها فخلعته في الرَّبيع..

أنظر للباب - كما أفعل كلّما سمعتُ صوت خطواتٍ تقترب - بحركة لا إراديَّة؛ ويمرُّ ذلك الشّاب..

بعض موظّفات الشّركة تكلّمن عنه، عن ذوقه في اختيار ملابسه وعن رائحة عطره الأخّاذة المثيرة.. تكلّمن كثيراً عن أنّه لا يعير أيّ واحدة منهنّ اهتماماً، وأنَّه متَّزن حتّى الحدّ الأخير مما جعله في عيونهنّ وبالذّات مع ملامحه الوسيمة؛ شيئاً يذهل إعجابهنّ حتّى أقصى حدّ..

لم يكنّ يعرفن للأسف أنّه كان يتصرّف معهنّ هكذا لأنّه شاذ!

أضحكُ بعنف..

لا أدري لم تذكَّرتُ صديقاً قال ذات يوم:

- حبُّ الولد؛ إلى الأبد!

* * *

«مآسي الآخرين دائماً سخيفة إلى درجة متناهية».

(أوسكار وايلد)

* * *

كنتُ أعرف هذا عنه ولكنَّني لا أشي بأحد..

لستُ مهتماً بالآخرين؛ لا بمآسيهم ولا بما يخفونه ولا بما يظهرونه؛ المهمُّ عندي ألاَّ يتسبَّب أحدهم لي بضيق؛ وقتها سأصهره..

علاقتي بالموظَّفات عاديَّة جداً، تعلَّمت منذ زمن طويل ألاَّ أكون داخل الشَّركة كما أنا خارجها، وألاَّ يكون جوهري كمظهري، ولذا فلا أحد في الشَّركة كلِّها يعرف أنَّني شاعر، كما لا يعرف أحد عن نشاطاتي النسائيَّة كلَّ يوم!

* * *

.. كيف أستطيع أن أنتحر دون أن أموت؟!

* * *

13

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

شِعْرِي عَقِيمٌ

لَيْسَ فِيهِ مِنَ المَجَازِ أَوِ البَلاَغَةِ

أَوْ مِن الجُمَلِ الَّتِي فِيها حَيَاةٌ

أَيُّ لَوْن..

قَبْلَكِ

كُلُّ الكِتَاباتِ الَّتِي انْسَكَبَتْ

عَلَى وَرَقِي؛

ذَهَابٌ رَاجِعٌ/فَوْضَى

وَكُلُّ القَيْءِ

مِن قَلَمِي

.. فَرَاغَاتٌ بِحَجْمِ الكَوْن!

* * *

صدفةً؛ عرف أحد الموظَّفين أنَّني أكتب الشِّعر..

جاءني حاملاً مجموعة أوراق، وطلب رأيي.. أخبرته أنَّني لا أفهم الشِّعر كثيراً وأفرِّق بين الأنواع الشعريَّة بصعوبة، لكنَّه ضحك وأخبرني أنَّه حضر أمسيتي الشِّعريَّة الَّتي أقمتُها بالأمس في أحد المراكز الثَّقافيَّة في العاصمة، ومنها أدرك أنَّني أكتب الشِّعر ببراعة؛ على حدِّ قوله!

قرأت بعضاً ممَّا كتب وصُدمت؛ كيف يصف نفسه بأنَّه شاعر وهو لا يكتب على أيِّ بحر من البحور؟! هل اخترع بحراً جديداً ينافس فيه الفراهيديّ؛ هو البحر الميِّت المتوسِّط مثلاً؟! هل يزن قصائده بميزان إنجليزي مكسور؟! هل يعلم أنَّ الكسور الموجودة في أبياته لا تحتاج إلى تصحيح عَروضي فحسب؛ بل إلى مستشفى بكامل معدَّاته وتجهيزاته؟!

..

.. كم أنَّ الإنسان رهينة تفكيره المحدود؛ كما هو الخيط رهينة الإبرة!

* * *

على مكتبي من جديد..

ستَّة أيَّام مرَّت على ذكرى وفاتك قبل عامين يا (سندس)؛ شيء لا أدري كنهه يحرقني من الداخل..

أحاول نسيانكِ كثيراً بلا جدوى، أنت ريح عاتية تقتحم خلوتي بصخب، تنشر الإشراق في ضبابي كلّ حين..

نمتُ بالأمس في فندق!

لم أعرف السَّبب في هذا كذلك..

هناك شعور عارم بالشَّتات..

.. هناك إحساس مفعم باللاّفائدة من كلِّ ما أفعل!

* * *

يمرُّ من البابِ ذلك الشَّاب..

من مشيته، من نظراته، من أسلوبه في معاملة من حوله، وتلك الأغنية الَّتي انطلق هاتفه فيها يغنِّي بدون قصد؛ عرفتُ أنَّه ينتمي لذلك التيَّار المهزوم..

مسكين!

هو من ذلك الطِّراز الَّذِي يحترف الحزن ويجيد إشعار من حوله بالمرارة والألم.. لا يسمّى نفسه إلاّ (ملك الأحزان) أو (المعذّب) أو (أسير الحزن).. لا بدَّ أن خواطره وكتاباته كلّها - إن وجدت - تدور حول الهلاك والجنون والأرق..

إنَّه يحاول ألاّ يضحك، وإذا ضحك فإنّه يقول: (أعوذ بالله من شرّ هذا الضّحك)! التّشاؤم شعاره الأبديّ..

.. لم لا يرمي بنفسه في شبكة الموت؛ كمرجانةٍ مستسلمة لقدرها؟!

* * *

أسألها:

- هل وقتك يسمح لي بالمرور يا (غدير)؟!

- تعال..

.. أجابتني!

* * *

مُنهكاً؛ ألقي نفسي بجانبها بعد انتهائي من افتراسها..

(غدير) من النَّوع الفاتن، غريب الأطوار جداً؛ إنَّها تضع عدسات لاصقة سوداء على عينيها الزَّرقاوين؛ كما تصبغ شعرها الأشقر؛ بلون اللَّيل!

أخبرتها كثيراً أنّ ما يحدث بين البشر هو العكس؛ لكنَّها تأمرني أن أصمت، لئلاَّ تدهن وجهها بلون أسمر!

- لم تفعلين هذا؟!

- ماذا؟!

- هذا!

- ماذا؟!

- نومك معي!

- كي أنسى!

- تنسين ماذا؟!

تنظر لي في تردُّد، لكنَّها لا تجيبني..

- .. أنت لماذا تفعله؟!

- كي أنسى!

- تنسى ماذا؟!

- لن أخبركِ!

- لقد أخبرتني مسبقاً..

- وما السَّبب؟!

- (سندس)!

أنظر إليها في غضب ودهشة، لم أخبرها من قبل:

- لم أخبرك من قبل!

- بل أخبرتني ذات ثمالة..

- اللّعنة على الخمر!

أقولها وأبصق على يميني.. اللّعنة على الخمر!

تقول لي:

- جمالي من النَّوع الَّذي سأكون ظالمة له إن كان لرجلٍ واحد!

أضحك.. هل هي مدركة أنها تفعل العكس تماماً؟!

- .. هل قلتُ شيئاً مضحكاً؟!

- لو أنَّ كلَّ فاتنةٍ فكَّرت بمنطقكِ مثلك؛ لما كانت هناك أسر، ولا زواج، ولا سعادة، ولا مودَّة ورحمة! كما أنّك تفعلين العكس.. أنت تخفين جمالك الحقيقي المرغوب أكثر؛ بالشكل التقليدي العادي، وكأنّك تدخرينه لأجل شخص مميز.. هل هذا صحيح أم أنني مخطئ؟!

- ربما..

تصمت، وأصمت..

تسألني:

- هل ما زلت تكتب؟!

- ليس دائماً..

- متى خطَّ قلمك آخر قصيدة؟!

- قبل ثلاثة شهور..

- عن (سندس) كالعادة؟!

- ربَّما..

- أين قصائدك الوطنيَّة؟!

- تركتها لمن يستحقُّون كتابتها.. ربّما أكون مقصَّرا في التّنقيب عن قصائد لوطني المكسور المحتلّ في مناجم إحساسي؛ إلاَّ أنَّ هذا لأنّنا نكتب منذ خمسين عاماً بلا جدوى.. كلّ ما فعلناه هو أنّنا زدنا عدد الشّعراء والقصائد وصوت التّصفيق!

* * *

«هناك ثلاث طرق للخراب: الميسر، النِّساء، المهندسون؛ الطَّريقان الأوَّليَّان هُما الأكثر لذَّة؛ لكنَّ الطَّريق الأخيرة هي الأضمن».

(روتشيلد)

* * *

14

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

فِي كُلَّ شَيْءٍ

لاَ أَشُمُّ سِوَى رَوَائِحَ

مِن لَظَاها

هَبَّت الأَنْيَابْ..

أَسْتَنْشِقُ الأَشْيَاءَ

أَبْعَثُ فِي وُجُودِي نَغْمَةً

مِن عَزْفِهَا

يَحْيَا الجَّمِيعُ؛

فَمَا أَنَا إلاَّ خُوَاءُ

.. وَوِحْدَتِي إِضْرَابْ!

* * *

في المكتب..

أنهيتُ الآن تصوُّري الأوَّل للجسر الجديد، ضغطتُ زرَّ الاتِّصال الداخليَّ وطلبتُ بعض الشَّاي..

جاءني الشَّاي بعد قليل، نظرتُ للكأس الزجاجيّة الّتي أحضرها الشَّاب.. كم فماً شرب منها وكم يداً تناقلتها؟! كم من شفاه لثمت جوانبها وارتشفت ما بداخلها؟! كم مرّة قامت بتقبيل من يمسكها ويحتضنها بيديه أو بإحداهما؟!

تناولتُ الشَّاي منه وبدأت أرتشفه في هدوء وأنا أكمل حديثي مع زميلي في المكتب، والَّذي فاز عليَّ قبل ثوانٍ، كالمعتاد؛ لأنَّني أريد هذا..

يقول لي عن النِّساء:

- كلهنّ يتشابهنَ عندما تطفئ الضّوء!

أنظر في وجهه بغباء.. كيف يستطيع أن يرى الفتاة هكذا؟! كيف بإمكانه أن يتأقلم مع نفسه بالحديث عن وجوده مع أنثى بهذه الطريقة؟! كيف يكون معها ويكون رأيه فيها أنّها تتشابه مع كلّ واحدة أخرى في الكون؟!

أظنّه أحمق تماماً بعد هذه الكلمة!

لكلّ واحدة منهنّ أسلوب خاصّ بها في كلّ شيء.. وحتى لو أطفأتَ الضّوء ستبقى هناك الرّوح؛

ملامح روحها وشكل روحها وتفاصيل روحها، رائحة جسدها وشبقها، طعم عطرها، نكهة صوتها، حركاتها ونشاطها، قوتها وضعفها، نعومتها ورقّتها، ليونة جسدها وانحناءاتها وانثناءاتها، كلامها وإغرائها، إغوائها، ضحكتها، تفاعلها معك أو جمودها، إمتاعها لك أو إشعارك أنها مجرّد مستقبِل وأنت المُرسِل؛ ربّاه!

كلّ هذه فروق هائلة؛ وبعدها تأتي وتخبرني أنّهنّ متشابهات في الضّوء المطفأ؟!

.. ولماذا – يا عبقري – خلق الله الجمال، وخلق الضّوء؛ إذن؟!

* * *

«النِّسيان هو الكالسيوم الوحيد الَّذي يقاوم هشاشة العاشق أمام الفراق».

(أحلام مستغانمي)

* * *

يأتيني الشَّاب الشَّاذ:

- ماذا ستفعل بشأن زميل عملك هذا يا رجُل؟!

- ما به؟!

- مجرّد رؤية غبائه المتجسّد فوق ملامحه أصابني بالصّداع والتقزّز.. ماذا سيكون شعور زوجته وهي معه؟! أراهنُ بأنّها ستشعر أنّ الغباء يقبّلها، أنَّ الغباء يحتضنها، أنَّ الغباء يضاجعها.. ربَّاه! هذه أوّل حالة مُضاجعة بين إنسان من لحم ودمّ؛ مع صِفة!

أفكِّر قليلاً في كلامه..

أرفع سمَّاعة الهاتف، أجري اتِّصالاً مع دائرة الموارد البشريَّة، أطلب منهم أن يبحثوا لي عن موظَّفٍ آخر، تماماً كما تطلب شطيرة دجاج من مطعم للوجبات السّريعة!

* * *

إنها السّاعة الأخيرة من العمل..

العقاربُ مصابة بشلل نصفي.. والوقت يشعرك أنه سلحفاة تعاني من سرطان اسمه ضمور العضلات.. الثواني تزحف باستفزاز مثير للأعصاب!

العيون تنعس.. والجسد يتراخى.. والدماغ يعيش البطالة.. حقاً هذا موت مؤقَّت إلاَّ ربع!

* * *

أنهضُ من مكاني..

- إلى أين؟!

يسألني زميلي؛ فأجيبه:

- أريد أن أتجوَّل قليلاً بين المكاتب.. ثمَّ إنَّ هذا ليس من شأنك يا صديقي!

يقول شيئاً ما لكنَّني لا أسمعه، أضع يدي اليمنى في جيب بنطالي، وأحملُ باليسرى سيجارتي المشتعلة الَّتي ذاب نصفُها..

أمرُّ بالمكاتب بخطوات مدروسة، أدخلَ نصف رأسي من الباب، ينظرُ إلي الجالسون خلف أجهزة الحاسوب بتساؤل، أبتسم، أذهب إلى مكتب آخر..

* * *

مكتب 1:

- عن ماذا كان حديثكم؟!

- عن الكتب..

- جميل.. ما آخر كتاب قرأته أنت؟!

- كتاب غريب؛ مليء بالجنس إلى درجة غريبة.. كرهته بشكل غريب!

- دعك من الكتب المصابة بالإيدز!

* * *

مكتب 2:

- عن ماذا كان حديثكم؟!

- عن الكائنات الفضائيّة العاقلة، القادمة من خارج كوكبنا..

- تؤمنون بوجودها؟!

- لا.. نظنُّها محض خيالات لروائيّين وكتّاب سيناريوهات سينمائيَّة..

- هل سمعتم عن (روزويل)؟!

- من؟!

- (روزويل).. ابحث عن تفاصيل قصَّتها على شبكة الإنترنت وسوف يذهلك ما ستجده؛ لكنّ عندي نصيحة لك بشأن الكائنات العاقلة..

- تفضَّل..

- أعتقد أنَّ علينا البحث عن الكائنات العاقلة في كوكبنا نحن؛ قبل البحث عنها خارج غلافنا الجويّ!

* * *

مكتب 3:

- عن ماذا كان حديثكم؟!

- عن حكومتنا الجميلة..

- لا بدَّ أنَّكم تقصدون أنَّها وزير ماليَّة مُبالغ فيه؛ صحيح؟!

- كلاَّ طبعاً..

- لا بدَّ أنَّكم تضحكون على ما قاله رئيس الوزراء قبل عدَّة أيَّام؛ من أنَّ الشَّعب راضٍ عن حكومته؛ ولا بدَّ أنَّكم تساءلتم: هل لا يعلم شيئاً عن هذا الشَّعب؛ أم أنَّه نُقل دون أن يدري أحد – حتَّى هو – إلى حكومة أخرى؟!

- كلاّ..

- لا بدَّ أنَّكم تكلَّمتُم قليلاً عن غلاء الأسعار..

- لم نتحدَّث بشيء..

- بل تحدَّثتم؛ يقولون إنَّ غلاء الأسعار سيدفعُ الحكومة لاستيراد اللُّحوم البلديَّة!

* * *

مكتب 4:

- عن ماذا كان حديثكم؟!

- عن وفاء الكلاب..

- هل تعلمون أنَّها مخلوقات ذكيَّة ذات ذوق رفيع؟!

- كيف؟!

- يكفي أنَّها لا تغضبُ من بعضها إن قال أحدها للآخر: يا ابن الكلب!

* * *

مكتب 5:

- عن ماذا كان حديثكم؟!

- عن هذا الغاضب من تصرُّفات أبيه معه..

- عليك أن تصبر يا رجل؛ يبقى والدك مهما حدث.. يبقى مدرسةً لك..

- إنَّها مدرسة سيّئة إذن، والله لا يليق به أن يكون أباً!

- أعلم هذا؛ الأب مدرسة كاملة؛ تبقى المشكلة أحياناً في المناهج التّدريسيَّة!

* * *

مكتب 6:

- عن ماذا كان حديثكم؟!

- عن حادثة الحمار المكتوبة بالصَّحيفة..

- أيَّةُ حادثة؟!

- الحمار الَّذي رفس صاحبه وألقاه في المستشفى.. الحقيقة أنَّ صاحبه حمار أكثر منه لو أردتَ رأيي!

- هل تعلم أين المشكلة في الحمير؟!

- أين؟!

- أنَّهم موجودون في كلِّ مكان.. حتَّى بين الأحصنة ستجدُ واحداً، حتَّى بين أصدقائك أو معارفك ستجد واحداً!

* * *

مكتب 7:

- عن ماذا كان حديثكم؟!

- عن المرتَّب الشَّهري للموظَّفين..

- ما به؟!

- سمعنا أنَّ الشَّركة ستزيد المرتَّبات؛ قريباً..

- هذا شيء تمَّت إضافته مؤخَّراً إلى قائمة العنقاء والرخّ والخلِّ الوفيّ!

* * *

«العالم مستشفى كبير للأمراض العقليَّة؛ أسوأ ما فيه أنَّ روَّاده عكس روَّاد المصحَّات العقليَّة؛ يسيرون طُلقاء».

(إبراهيم الكوني)

* * *

15
(أمّا قبل)

قَبْلَكِ

أَنَا سَاذَجٌ

طِفْلٌ بَرِيءٌ يَحْتَوِي قَلَماً وَأَوْراقاً

غَزَاها النَّمْلُ؛ بَيْنَ يَدَيْه..

قَبْلَك

إِبْداعِيَ المَوْهُومُ كِذْبٌ بَارِدٌ

مِثْلَ الكَفِيفِ إِذَا ادَّعى

أَنَّ الضِّيَاءَ

مِن العَوَامِيدِ العَتِيقَةِ فِي الشَّوارِعِ

.. جَاءَ مِن عَيْنَيْه!

* * *

أدخلُ المكتب الثَّامِن..

هناك طاولة واحدة قرب الحائط الأيمن، عليها أوراق، وجهاز حاسوب بشاشة ضخمة، جلست خلفها فتاة؛ على مقعدها..

فتاة جميلة هي فعلاً!

أنظر نحوها وأنا ما زلتُ واقفاً قربَ الباب؛ ترفعُ لي عينين خضراوين متسائلتين:

- تفضَّل.. أستطيعُ أن أخدمك بشيء؟!

- سلامٌ عليكِ..

- وعليكَ..

أدخلُ نافثاً بعض الدّخان من فمي وأنفي؛ إذ أنَّني قبل قليل أشعلتُ سيجارتي الثَّانية:

- (عماد برهان)؛ مدير قسم الهندسة..

- أعرفك طبعاً؛ أستاذ..

أقترب منها ببطء؛ متأمِّلاً وجهها الجميل.. أمدُّ يدي لأصافحها لكنَّها تضعُ راحةَ يدها اليمنى على صدرها بما يشبه الاعتذار..

كان يجبُ أن أتوقَّع هذا؛ فتاة تحيط رأسها بشالٍ أزرق جذَّاب، وتغطِّي جسدها بجلباب أزرق أكثر

جاذبيَّة؛ لا بدَّ أنّها لا تُصافِح الرِّجال..

أجلسُ على المقعد المواجه لها دون أن أستأذن، تجلسُ وتنظرُ لي، أنظرُ لها..

أحدِّقُ في وجهها؛ ثلج..

أحدِّق في عينيها؛ غابة..

أحدِّق في شفتيها؛ كرز..

أحدِّقُ في نفسي..

.. أنتبه إلى أنَّنِي أغازلها بيني وبيني دون أن أدرك!

* * *

«ينبغي أن يكون هذا جميلاً؛ فنحنُ لا نفهم منهُ شيئاً».

(موليير)

* * *

تقول لي:

- ما أخبارك مع الشِّعر وكواكبه؟!

أمتلئ بالدَّهشة..

كيف عرفت؟!

أجيب:

- كيف تعرفين؟!

- أخي كان معك في الجامعة، وقد دعاني أكثر من مرَّةٍ لحضور أمسياتٍ لك..

- أخوكِ؟!

- نعم؛ ربّما لن تتذكّره.. طويل القامة جداً، يصلحُ لأن يكون لاعب كرة سلّة، اسمه (صفوان)..

- طبعاً أذكره؛ فقليلون يحملون هذا الاسم..

تبتسم بهدوء كنجمة..

أشهدُ أنِّي منذ زمن مسكونٍ بالبُعد؛ لم أر مثل هذه الابتسامة!

لماذا يبدو وجهها الشَّبيه بالسَّحاب هذا؛ قريباً من وجه (سندس)؟!

ليست المسألة مسألة تشابه في الوجه أو الملامح أو العينين؛ هناك شيء أعمق، وكأنّ روحها تشبه روح (سندس)؛ حقًّا..

أسحبُ نفساً عميقاً من السِّيجارة:

- ما اسمكِ؟!

* * *

للأسماءِ احترامُها ووهجها؛ بتمييزها الأشياء عن بعضها البعض، وإعطاء النكهة الخاصّة لكلّ شأن من الشؤون على حدة..

الأشياء لا تستطيع الكلام ولا تتقن اللغة.. الأشياء تجهل الحروف والكلمات ولا تعرف سوى أن تعرف ذاتها وكينونتها.. لا تهمها الأسماء ولا تدري بالأصل أن هناك أسماء لها؛ هي فقط تعلم أنها موجودة..

الأسماء مرآة الأشياء، والأشياء بنات الأسماء، والأسماء للأشياء أرض وسماء، والأرض للأشياء سماء، والسماء أرض للأشياء..

بالأشياء لا اسم يشابه الآخر، وبالأسماء لا شيء يشابه أخاه، كلّ منهما يعيش في عالم منفرد لكنّه متّصل؛ إذ لا تربطهما علاقة غير المسمّيات والقرابة الشّكلية فحسب..

لا الأسماء تريد أن يكون لها أشياء ولا الأشياء ترغب أن تظل حتى الأبد ملتصقة بالأسماء؛ الاستقلالية حلم عند كل طرف منهما؛ لن يتحقق ما دام هناك شعور عند الكلام بِحبّ التفريق بينهما، وإلقاء هموم كل أمر على عاتق الآخر..

الأشياء لا تستطيع الكلام؛ ولهذا ولدت الأسماء.. ولهذا جاء اللسان ليمنحنا خبر الأسماء والأشياء..

الأشياء لا تستطيع الكلام؛

.. لكنّ الأسماء تستطيع!

* * *

- إنَّ أوَّل حرفٍ من اسمي هو (عين) أيضاً.. مثلك!

تجيبني؛ وأبتسمُ..

هي مشاكسة كما لاحظتُ!

لكن؛ عين وعين؛ هل هذه إشارة أنّنا عينان سنرى الوجود بنظرات أخرى؟!

أضحكُ داخلي عليّ؛ أتجاهل ما أفكّر فيه وأقول بلا مبالاة:

- أوَّل حرف هو (عين).. ما اسمكِ؟! (فاطمة)؟!

تضحكُ..

يا إلهي!

هذه ضحكةُ وردة لو أنَّ للورد شفاه.. هذه ضحكةُ شمسٍ تعتبرُ النَّهار عابر سبيلٍ في مدارها.. هذه ضحكةٌ لها حضور، ومكان، وزمان، واسم..

- لا.. ليس (فاطمة)، قلتُ لك أنَّهُ يبدأ بحرف (عين)!

- (سوسن)؟!

ضحكة أخرى:

- لا..

- ما هو إذن؟!

تقول ببطء:

- (عليا)!

أصمتُ قليلاً.. الاسم غريب ومألوف بنفس الوقت..

أسألها:

- (عالية)؟!

- لا..

- (علياء)؟!

- لا..

- (عليا)؟!

- نعم.. (عليا)..

أبتسمُ:

- أهلاً (عليا).. اسمكِ جميل ومشرق..

- أشكرك..

يسودُ بعض الصَّمت، أنظرُ نحوها، تنظر نحو شاشة حاسوبها، تعبث بالفأرة..

أشعرُ أنَّ مكوثي طال قليلاً، وأنَّ عليَّ أن أنهض، وأن أعود لمكتبي لأخذ أشيائي، والتوجُّه إلى البيت..

أنهضُ فعلاً:

- تريدين شيئاً؟!

- كلاَّ.. أشكرك..

- سعيدٌ بلقائكِ..

بخجل تردُّ:

- وأنا أيضاً..

- تحياتي لشقيقكِ..

- تحيَّاتي لقصائدك..

أبتسم من جديد وأغادر..

لقاء قصير لكنَّه بعثرني تماماً!

لقاء قصير؛ لكنَّها استولت فيه على اهتمامي كلِّه..

* * *

«الحبُّ هو المصيدة الَّتي ينصبها الرَّجل بنفسه؛ ثمَّ يدخلها بكامل حُرِّيَّته».

(أنيس منصور)

* * *

16

(أمّا قبل)

قَبْلَكِ..

هَكَذا أَنَا قَبْلَكِ،

يَتَلَصَّصُ الكُلُّ الشَّدِيدُ عَلَيَّ

يَكْتَظُّ الهَوَاءُ بِأُحْرُفٍ شِرِّيرَةٍ

مِنْهُم

تُهَاجِمُ خافِقِي/قَلْبِي اليَتِيمْ..

قَبْلَكِ

كُلِّي سَقِيمْ..

وَالحُطَامُ بِأَسْطُرِي دَوْماً مُقِيمْ..

وَلِطَعْمِ زَمْزَمَ فِي فَمِي

.. طَعْمُ الحَمِيمْ!

* * *

في السيَّارة، متَّجهاً إلى الشَّركة..

كنتُ قبل قليل في المقبرة عند (سندس)، أخذتُ معي باقة ورد بريئة طفوليَّة كما فعلتُ العام الماضي، عندما زرتُها بعد عشرة أيَّام على موعد ذكراها السَّنويَّة..

لم لا أزورها بنفس اليوم؟!

لم لا أزورها بنفس الأسبوع؟!

لا أعرف..

المهمُّ أنَّني زرتها وتحدَّثت مع رخام قبرها قليلاً..

أجمل ما في الأموات أنّهم لا يصدّعون رأسك بالكلام الكثير عن أوجاع الروماتيزم مثلاً، وآلام طاحونة العقل، والمطعم الجديد في عبدون، والباصور الّذي في المؤخّرة، وآخر فيلم سينمائي فاشل لأحمد آدم، وفضيحة الراقصة فلانة، وأخبار المطربة علاّنة!

الأموات ينصتون إليك بطريقة مشجِّعة؛ لا تمنحك سوى الدافعية بأن تستمرّ بالكلام والكلام والكلام!

* * *

دخلتُ من باب الشَّركة ولم أتَّجه إلى مكتبي..

مُباشرة؛ ودون أن أدري أيَّ سبب، ودون أن أجد تفسيراً؛ ساقتني قدماي إلى حيث مكتب (عليا)..

لَكَم تذكَّرتُها بالأمس رغم أنِّي قضيتُ أربع ساعات مع (غادة)؛ الأرملة الأربعينيّة المغتربة، والَّتي كانت ترقص فيما مضى في (مصر)؛ قبل أن يموت زوجها ومدير أعمالها منذ سنين..

(غادة) الشهيَّة ما تزال!

أقفُ على باب المكتب؛ منهمكة (عليا) بالعمل على حاسوبها:

- صباحُك سكَّر..

- صباحُك نور..

تقولها بابتسامة هادئة بعد أن رفعت رأسها ورأتني، أدخل، أشعلُ سيجارة لكنَّها تقول في تهذيب وحرج:

- أرجوك اقترفها في الخارج، صدري لا يحتمل الدُّخان..

أنظر في دهشة:

- لكنَّني دخَّنتُ هُنا بالأمس ولم تعترضي..

- كنت ضيفاً، وكانت هذه هي أوَّل مرَّة تدخلُ مكتبي..

أطفئ رأس سيجارتي بين إبهامي وسبَّابتي، تبدو عليها دهشة مماثلة لدهشتي قبل قليل، أضحك، تضحك..

ماذا تفعل بي ضحكتُها بالضَّبط؟!

هذه أبجديَّة موسيقى، وليست ضحكة!

هذه هي الأصوات اللاّمسموعة، لقوس قزح!

- وماذا تعملين هنا؟!

أسألها بسرعة محاولاً طرد أيَّ أفكار تنقشها طباشير إعجابي على لوحي الدَّاخلي، تنظر لي وتجيب:

- وظيفتي؟!

- نعم..

- مسؤولة علاقات عامَّة..

أنظر لها نظرة خبيثة:

- أي أنَّ علاقاتك كثيرة؟!

يبدو على وجهها أنَّها أدركت مقصدي، تبتسم، تقول بهدوء واثق:

- ضمن إطار العمل فحسب..

أرسم على وجهي انفعالاً مغموراً بالإعجاب.. تنظرُ إلى حاسوبها، نظرتها الجامدة أكَّدت لي أنَّه لا شيء مهمّ أمامها؛ هي تنظر فقط لأنَّها مرتبكة من وجودي بلا هدف أو سبب منطقي، ولأنَّني أنظر لها محدِّقاً متأمِّلاً..

صعبةَ هذه الفتاة!

حتَّى لو كانت خجولة كما هي الآن أمامي، حتَّى لو كنت أنا وهي الآن غيمتين في سماء الصَّمت؛ إلاَّ أنَّ هناك صلابة غريبة، حتَّى في نبرة صوتها الشَّبيه بالعسل؛ هناك حزم أجهل كنهه وتفاصيله. هُناك تناقض مذهل ها هنا.. هُناك أشياء تدلُّ على شخصيَّة قويَّة ليست سهلة، وهُناك أشياء أخرى تدلُّ على شخصيَّة مهزومة مسحوقة..

قرأت هذا فيما رأيته منها حتَّى الآن، وربَّما كنتُ مجحفاً.. لكنَّها لغة الجسد؛ أظنُّ أنَّنِي - نوعاً ما - أجيدُها!

* * *

«أحبُّ الإطراء والمُجاملات؛ وخُصوصاً عِندما تُغدَق عليَّ عن كثب».

(صوفي أرنو)

* * *

أعترف؛ لِساني لم يتوقَّف عن مغازلتها لحظة..

لماذا؟!

لا أعرف أيضاً.. صحيح أنَّني أشاطر السَّرير يومياً مع واحدة أو اثنتين، لكنَّني ما زلتُ هشاً.. لا أدري لم تبعثُ (عليا) فيَّ قوَّة غريبة؛ بدون قصد..

مرَّت عدَّة أيَّام وأنا أزورها في المكتب، بدا عليها الحرج أكثر من مرَّة من كلامي لكنَّني لم أتوقَّف.. إنَّني أقرأ دواوين كثيرة، وأشاهد مسرحيات ومسلسلات كوميديَّة أكثر، كما أنَّني عرفتُ وأعرفُ نساءً تجاوزنَ قدرتي على العدّ؛ كلُّ هذا منحني شيئاً أستطيع به أن أؤثِّر على الفتاة الَّتي أريدها..

إلاَّ (عليا)!

ها قد مرَّت ثلاثة أسابيع حتَّى الآن.. حاولتُ كثيراً بغزلي وكلامي وجرأتي أحياناً أن أشكِّلها كما أريد، لأظفر بها على السَّرير، لكنَّها كانت تصدُّني برفق تارة، وبهدوء تارة أخرى..

بحياد تارة، وبتجاهل متعمَّد تارة أخرى..

حاولتُ أن أصقلها لأصنع منها واحدةً من أولئك اللَّواتي أعرفهنَّ؛ لكن يبدو أنَّ القدر كان يعدُّ طريقاً آخر لقلبي..

هُناك جوّ من الكتمان العارم حولها، لم أعرف عنها شيء، لم تقل لي عن نفسها أيَّ شيء أو معلومة.. أشعر أنِّي حمامةُ سلام وسط معركتها، أو أنَّني شعلة نارٍ وسط محيطها، أو أنَّني بقعة جافَّة وسط واحتها المتخمة بالنَّخيل..

* * *

«يجبُ على المرأة أن تثير حولها جواً من الغموض، بحيث تجعل الرَّجل متشوِّقاً إلى اكتشاف سرِّ هذا الغموض.. ولن يكتشف ذلك طول عمره».

(توماس إليوت)

* * *

17

(أمّا بعد)

أشعرُ بشيءٍ لا أستطيع أن أفسِّره..

هناك نسمة لطيفة في مشاعري، منذ أن رحلت (سندس) ولغاية الآن؛ لم أشعر بهذا الشُّعور الحالم بين ضلوعي، في خفقات صدري..

أشعر به أحياناً مع من أضاجعهنّ، لكنَّه شعور مؤقَّت لا يأتيني إلاَّ في تلك اللَّحظات الكونيَّة الحميميَّة.. شعور آسر، عامر بالجمال..

لكن أن أشعر به بهذه الرقَّة، نحو (عليا) بالذَّات؛ فهذا ما فاجأني..

هل يا تراني أحاول أن أنسى (سندس) بشعوري نحو (عليا)؟!

هل (عليا) سلاح جديد لعقلي الباطن؛ بسببه قلَّت اتِّصالاتي كثيراً في الأسابيع الثَّلاثة الماضية، مع عاهراتي؟!

.. هل (عليا) مشروع مجهول، لشيء ما؟!

* * *

«كُلَّمَا جَاءَنِي الأَمْسُ، قُلْتُ لَهُ:

لَيْسَ مَوْعِدُنا اليَوْمَ، فَلْتَبْتَعِدْ

وَتَعَالَ غَداً!».

(محمود درويش)

* * *

مرَّ أسبوعان كذلك..

أصبحتُ أمرُّ كلَّ يومين أو ثلاثة، لم أعد أطيلُ الجلسات كما كنتُ أفعلُ سابقاً، لا أريد لأيِّ حربٍ داخلية أن تهبَّ وتشتعل من جديد؛ تجاهها..

لم أجلس في كلِّ مرَّة أكثر من ربع ساعة، وكانت هي فيها بقمَّة التَّهذيب، وكنتُ أنا مغازلاً عنيفاً لا يهدأ..

* * *

أدخلُ مكتبها صباحاً بكأسين من القهوة:

- صباحك سكَّر يا (عليا)..

- صباحك نور يا (عماد)..

منذ شهر تقريباً لم تلقِّبني بالأستاذ، ومنذ شهر تقريباً لم ألقِّبها بشيء.. منذ أوَّل يوم رأيتها فيه –

الحقيقة – وأنا أناديها باسمها المجرَّد..

تحدَّثنا كثيراً، ضحكنا، قرأت لها الكثير من قصائدي، لم أخبرها عن (سندس) أيَّ كلمة، لم أخبرها عن علاقاتي النسائيَّة..

أخفيتُ كلَّ هذا عنها، أخبرتها أنَّ قصائدي العاطفيَّة السابقة كلَّها كُتبت لأجل حبيبة مجهولة لا أعرفها، ولا أدري متى سأعرفها!

* * *

أنا.. مضطرب!

* * *

«الكلمات ظِلال

والظِّلالُ تصيرُ كلمات

والكلماتُ ألاعِيب

والألاعيبُ تصير كلمات

ظلالٌ هِي الكلمات

وتصيرُ الكلماتُ ظِلالاً

الألاعيبُ هِي الكلمات

وتصيرُ الكلماتُ ألاعيب

الكلماتُ هِي ظِلال

وتصيرُ الظِّلالُ كلمات

الكلماتُ هِي الألاعيب

وتصيرُ الألاعيبُ كلمات».

(يوجن جومرنجر)

* * *

دعوتُها إلى أمسية شعرية نثريَّة لي، في مقهى (جدران) الثقافي..

جاءت فعلاً بعد أيَّام، عرَّفتُ الأصدقاء عليها قائلاً أنَّها صديقة، لم يستغرب أحد من وقفتي معها، لم يتكهَّن أيٌّ منهم بشيء حولنا.. كان البعض يعرف بعلاقاتي، وكانت بعض من أضاجعهنّ موجودات هُناك.. (غدير) و(هند) جاءتا وصافحاتني وأنا أمنع نفسي بصعوبة من الضَّحك ومن التَّعليق على الموقف؛ (غدير) لا تعرف شيئاً عنِّي وعن مضاجعتي لـ (هند)، والعكس بالعكس، و(عليا) بينهما واقفة تنظر..

هل هذه نظرة غيرة يا (عليا)؟!

لم أسألها، احتفظتُ بعلامة الاستفهام في أعماقي، لكنَّني لمحتُ شيئاً من هذا الشّعور في عينيها..

بدأت الأمسية، جاء دوري، وقفتُ على المنصَّة:

«حِينَما سألَ المدرِّسُ

كُلَّ

مَن فِي الصَفِّ:

هَيَّا أخبِروني؛ ما الوَطَنْ؟!

لَم يَكُنْ يدرِي

- الجهولُ-

بِأنَّ مَن لا يَحْسِبُونَ دقائقَ الوقتِ - العقاربَ -

.. لا يُهِمُّهُمُ الزَّمَنْ!».

* * *

(عليا) تنظر لي متأمِّلة، تنظر لي دون أن تنظر لي، عيناها في وجهي لكنَّها غابت في مكان بعيد لا أدريه..

أنظرُ لها، أنقلُ نظراتي بينها وبين الورق مُكمِلاً:

«مَا الوَطَنْ؟!

هُوَ التَّأَكُّدُ أنَّ عَيْنَكَ

لاَ تَرَى

إلاَّ الجُمُودَ إذَا سَرَى!

هُوَ التَّخَيُّلُ أَنَّ مَشْيَكَ

لِلأَمَامِ

وَأنْتَ تَرْجِعُ قَهْقَرى!

هُوَ الظُّنُونُ جَمِيعُها

فَهُدَى الحَقِيقَةِ

.. قَدْ تَعَفَّنَ فِي الثَّرَى!».

* * *

أنظر نحوها وتنظر لي.. أبتسم رغم مرارة فمي من هذه القصيدة؛ لقد كتبتُها مباشرة بعد استشهاد (سندس) هُناك.. كتبتُها فور أن استطعت أن أحتضن القلم بين أصابعي، وأن أخطَّ به شيئاً على الورق:

«مَا الوَطَنْ؟!

هُوَ البِضَاعَةُ

حِينَ تَغْدُو صَفْقَةً

لاَ يَشْتَرِيهَا البَائِعُ!

هُوَ اجْتِماعُ الطَّبْلِ والجِيتارِ

وَالأَعْوَادِ وَالمِزْمَارِ

مَعْ فَنَّانَةٍ وَجُنُودِهَا

فِي مَرْقَصٍ

يُدعْى - مَجازاً -:

.. جامِعُ!».

* * *

يُخيَّل لي أنَّ (سندس) تطير من بين السُّطور وتحلِّق فوق الجمهور.. تحلِّق أعلى وأعلى ثمَّ تسقط بغتة بين ذراعي (عليا)، وأردفُ أنا:

«مَا الوَطَنْ؟!

شَعْبٌ، وأَعْلاَمٌ، وَجِيرانٌ..

وَرُعْبٌ، ثُمَّ أَحْلاَمٌ، ونِيرانٌ..

وَصَمْتٌ قابِعُ!

عَيْنٌ وَجَفَّ مُحِيطُها

وَطُمُوحُها؛

لَحْظاتُ وَقْتٍ صَامِتٍ

.. فِيهَا تَهُبُّ مَدَامِعُ!».

* * *

(سندس) بجانب (عليا)، تتكلَّمان عنِّي كما أحسُّ، تشيران لي، لحظة، هل هذا ثقب في رأسك يا (سندس)؟! هل تسيل الدِّماءُ منه يا (سندس)؟!

لساني يواصل:

«مَا الوَطَنْ؟!

سَبْتٌ بِهِ كُلُّ البَلاءْ..

أَحَدٌ يَمُوتُ بِهِ الرِّجَالُ كَذَا النِّساءْ..

إثْنِينِ فِيهِ مَذَلّةٌ بَعْدَ انْحِنَاءْ..
أَمَّا الثُّلاثَاءُ الَّتِي هِيَ قَبلَ ذاكَ الأربِعاءْ،
وَالأَرْبْعاءْ؛
فَتَضَامُنٌ مَع ذَلِكَ اليَوْمِ الَّذِي يُدْعَى الخَمِيسْ؛
قَتْلٌ، رَدَى،
وَصَدى،
وأمواتٌ عَلى طُولِ المَدَى
.. وَهُناكَ يَوْمٌ سَابِعُ!».

* * *

تختفي (سندس)، تبقى (عليا)، لكنَّ وجه (سندس) يطلُّ من وجهها، أو أنَّ العكس هو الَّذي حدث؟!
أيضاً لا أعرف.. وأيضاً يتابع فمي:
«مَا الوَطَنْ؟!
أبياتُ شِعْرٍ، أو قَصائِدُ
هَمُّهَا
سَرْدُ الحَقِيقَةِ كِذْبَةً
فِيهَا اصْطِناعٌ مَاتِعُ!
فِيهَا استَغَلَّ الشِّعْرُ كُلَّ قَضِيَّةٍ
بِكِتابَةٍ؛ بِخِطابَةٍ
كالبَدْرِ لِلعُشَّاقِ ما عادَ الضِّياءُ هُو المَلاذُ السَّامِعُ!
ما البَدْرُ غَيْرِ عِبَاءَةٍ
فِي لَيْلِهِمْ
كَيْ يَخرُجَ الشَّكْلُ النَّهائِيُّ الأَخِيرُ
مُزَوَّقاً؛
شَمْعٌ، وَوَرْدَاتٌ، وَأُغْنِيَةٌ،
وَدَمْعٌ، ثُمَّ قُبْلاَتٌ، وَأُمْنِيَةٌ،
.. وَصِدْقٌ ضَائِعُ!».

* * *

ألمحُ (سندس) في (عليا)، وألمحُ (عليا) في (سندس)..

أتذكَّر نفسي قبل عامين وأكثر، عندما كانت (سندس) تجلس بين الجمهور وتنظر لي في تشجيع، عندما كنت أحبُّها وكانت تحبُّني، وكنت أقرأ لها قصائدي العاطفيَّة على المسرح مباشرة..

أتذكَّر هذا و(عليا) تنظر لي بنفس نظرة (سندس) لي..

هل تحملُ (عليا) نحوي أيَّ قدر من المشاعر؟!

هل أحمل نحوها أيَّ قدر من المشاعر؟!

هل ما أحسُّ به حقيقي؟!

* * *

جسدي ينتفضُ مكملاً:

«مَا الوَطَنْ؟!

سِنُّ الطُّفُولَةِ والمُراهَقَةُ الخَفِيفَةُ،

دايةٌ وَوِلاَدَةٌ

قَبْرٌ وَتابُوتٌ وَلَوْنُ جَنازَةٍ

أَوْ مَلْجأ الهَرَبِ السَّرِيعِ مِنَ الصَّوارِيخِ السَّرِيعَةِ/

رَوْضَةٌ، وَمَدارِسٌ، ثُمَّ انْتِفاضَةُ صَرْخَةٍ

وَحِجَارَةٍ، وَقَنَابِلٍ

جَعَلَتْ جَمَاجِمَنا عَلَى التِّلْفازِ

رُوتيناً سَمِيناً

.. فِيهِ عَتْمٌ شَائِعُ!».

* * *

أختمُ قصيدتي؛ و(عليا) تنظر نحوي وقد بدأت بالتَّصفيق بصوت خافت قبل حتَّى أن أبدأ:

«ما الوَطَنْ؟!

تِلْكَ الحيَاةُ الـ كانَ لَوْنُ عَبِيرِها

شمسٌ تُغيثُ ظَلامَنَا

بِرُؤىً يُبَدِّدُها

.. سَوَادٌ نَاصِعُ!».

* * *

18

(أمّا بعد)

كَالنَّارِ - كُلُّ النَّارِ -

نَامَ ضِياؤُها

نَامَتْ وَقَامَ جَفافُها

وَغَدَتْ بِسِجْنٍ داخِلَ العُودِ الَّذِي فِي عُلبَةِ الكِبْرِيتْ:

هَكَذا أنتِ تَجِيءُ جِنانُكِ

وَمَدائِنٌ بِكِ مِنْ حَرِيرٍ دَافِقٍ

وَسَمَاءُ أَرْوَاحٍ

وَعِطْرٌ/لَذَّةٌ/وَرْدٌ/لُغاتٌ؛ فِي جَسَدْ..

هَكَذا أنتِ طَرِيقٌ لِلطَّرِيقِ

وَلَوْحَةٌ بَيْضاءُ

فِيها اللَّيْلُ صَارَ عَبِيرُهُ

.. شَمْساً يُحاصِرُها الأَبَدْ!

* * *

في طريقي إلى الشَّركة..

أديرُ مؤشِّر الإذاعة نحو محطَّتي المفضَّلة، أستغربُ الكلمات الفيروزيَّة الَّتي انبعثت من السمَّاعات الموزَّعة بمهارة عالية في كلِّ ركن من سيَّارتي:

«يخرب بيت عيونك يا (عليا) شو حلوين»!

أضحكُ.. كم أنتِ صادقة يا (فيروز)! عيناكِ يا (عليا) أجمل من كلِّ الأشياء المنقرضة والحيَّة، عيناكِ سربٌ من بحار مخضرَّة، قوافل نجوم عشبيَّة، عيناكِ سماوات ملوَّنة أفتقدها الآن..

«يخرب بيت عيونك يا (عليا) شو حلوين»!

* * *

أصلُ إلى الشَّركة..

يمرُّ اليوم بسرعة مدهشة: أرى (عليا)، نتجاذب أطراف الحديث عن الأمسية، لم أقل لها شيئاً عن المشاعر الَّتي بدأت أشعر بها، لم تقل لي شيئاً عن نظراتها الفاحصة لي أثناء وقوفي على المنصَّة، أذهب إلى المكتب، أنهمك في العمل على المشروع بشكل متواصل، مزيداً من الشَّاي والقهوة والدُّخان، أمرُّ على (عليا) عند نهاية وقت العمل وأعرضُ عليها أن أوصلها لكنَّها ترفض في لباقة..

أعود للبيت، منذ شهر تقريباً لم أضاجع فتاة.. منذ شهر لم أتّصل بأيٍّ واحدةٍ منهنّ، أولئك اللّواتي يعرفن كلَّ خليَّة في جسدي، واللّواتي أحفظ أجسادهنَّ بالملّيمتر..

.. أدخل المرحاض، أمارس العادة السريَّة من فرط الكبت!

* * *

على سريري مجموعة هائلة من الكتب، أسماء كثيرة على الأغلفة؛ إبراهيم نصر الله، بلال فضل، أحمد خالد توفيق، عبده خال، منى الشرّافي تيّم، هالة سرحان، أحلام مستغانمي، سميحة خريس، محمّد عفيفي، جورج أورويل، هزّاع البراري، زاهي وهبي، محمود درويش، فضيلة الفاروق، تامر إبراهيم، إبراهيم جابر إبراهيم، صامويل بيكيت، زياد صلاح، تميم البرغوثي، نبيل فاروق، أدونيس، عزيز نيسين، محمد سليمان عبد المالك، عمر طاهر، غادة السمَّان، أحمد رجب، ستيفن كينج، سميح القاسم، أنسي الحاج، محمّد فتحي، يوسف زيدان، محمَّد الماغوط..

.. أزيحُها كلُّها وأغطُّ في نومٍ عميق!

* * *

لماذا لم أعد أذكر (سندس) منذ أن فتحت (عليا) قفل قلبي المغلق؟!

هل صدق (بيتر بورتر) حين قال: «أنهضُ من نومي وأقول وداعاً للنَّاس الَّذين لن ألتقيهم ثانيةً»؟!

* * *

أصحو وأجلسُ أمام شاشة التِّلفاز؛ الشَّبيهة بشاشة السِّينما لضخامتها..

يباغتني فور تشغيلي للجهاز موسيقى مميَّزة؛ أحبُّ هذا المسلسل البدويّ، أعتقد أنَّه من المسلسلات الناجحة جداً، والَّتي تضافرت جهود الممثّلين مع المخرج مع المنتج مع الكاتب لإخراجه بأفضل صورة..

.. (لعيون عليا)؛ مُسلسل متقن الصُّنع والحبكة حقًّا!

* * *

«لا تتحسَّن الحال حتَّى إذا حدثت الأمور للبشر على النَّحو الَّذي يشتهونه».

(هيراقليطس)

* * *

19

(أمّا بعد)

يتَّصلُ بي (خليل)؛ أقربُ أصدقائي لي، وأجملُ الشُّعراء الَّذين أعرفهم، والَّذي التقيته ذات صدفة في أمسية قبل عام ونصف تقريباً..

- هل عندك شيء هذا المساء؟!

- لا..

- أريد أن نذهب معاً لإحضار صديق لنا؛ شاعر، سيجيء اليوم..

- نحضره من أين؟!

- من مطار الملكة (علياء)..

- أين؟!

- مطار الملكة (علياء)!

* * *

في اليوم التَّالي:

زميلي الجديد في المكتب يطلب منِّي أن أكتب له موضوع تعبير!

- ماذا؟!

- بالله عليك؛ أنت تعرف بهذه الأمور، أنا مجرَّد أمِّيٍّ أمام الورق..

- سأكتب؛ لكنَّها المرَّة الأولى والأخيرة..

- حسناً..

- لمن الموضوع؟!

- لشقيقتي الصَّغيرة (ياسمين)..

- عن ماذا؟!

- عن الرِّفعة والعلياء!

* * *

جسدي كلُّه ينتفض في البيت..

لم أذهب لرؤية (عليا) عند قدومي اليوم إلى الشَّركة، ولا عند انتهاء وقت العمل..

لم أرها اليوم كلَّه!

أفتحُ التِّلفاز، هُناك مسابقة طريفة، انتهت المسابقة وقالت المذيعة:

- للمشاركة أرسل حرف (ع) إلى 7865 على زين وأمنية وأورانج و..

لم أسمع ما أكملت..

لم أسمع!

من جديد:

حرف (عين)!

مطار الملكة (علياء)!

موضوع تعبير عن الرِّفعة و(العلياء)!

مسلسل (لعيون عليا)!

أغنية «يخرب بيت عيونك يا (عليا) شو حلوين»!

* * *

ماذا يحدُث؟!

(عليا) تحاصرني؛ أم أنَّني أدفعها لمحاصرتي؟!

من يحاصر الآخر؟!

هل يشير هذا لشيء؟!

هل يؤكِّد هذا أيَّ شيء؟!

* * *

«العقل لا يحكم القلب أبداً، لكنَّه يصير شريكاً له في جرائمه».

(مينون ماكلوجلين)

* * *

في اليوم التَّالي:

أتوجَّه نحو مكتب (عليا) في الصَّباح الباكر..

لم تصل بعد!

أجلس مرتعشاً بعد أن فتحتُ الباب وأشعلتُ الأضواء، جسدي كلُّه ليس معي، لم أكن هكذا منذ أن كنتُ مراهقاً..

لا أدري؛ هل شعور الحبّ مربك إلى هذا الحدّ؟!

هل هذا حبّ؟!

هل هذا يشبه ما كنت أحسُّه تجاه (سندس)؟!

.. هل؟!

* * *

«أريدُ أن أقولَ لكِ أعمقَ الكلمات
ولكنَّني لا أجرؤُ خوفاً مِن سُخريتكِ
ولهذا أضحكُ مِن نفسي
وأحوِّلُ سِرِّي إلى سُخرية
أريدُ أن أقولَ لكِ أصدقَ الكلمات
ولكنَّني أخشى ألاَّ تُصدِّقينني
لهذا السَّبب أُخفي هذا الصِّدق
وأقول لكِ عكس ما أفكّر فيه..
إنّي أجعلُ دائماً ألمي عبثاً
خوفاً من أن تقومي أنتِ بذلِك..
أريد أن أستخدمَ أثمنَ الكلماتِ الّتي ادُّخرتها لكِ
ولكنّي لا أجرؤ خوفاً من أن تحتقريها».

(طاغور)

* * *

أحياناً؛ تصلُ قُدرة المرءِ على الاحتمال إلى حدِّها الأقصى.. فإمَّا أن ينطقَ ما بجوفه؛ أو يصمت إلى الأبد!

* * *

تدخل (عليا)..
الدّهشة تأكل ملامحها كلّها، تركض من انفعالات وجهها، تشتعل من بين أهدابها وجفونها..
لم أقل لها أيَّ كلمة، لم تقل لي أيَّ حرف..
جلست على مقعدها..
.. نظرت لي في تساؤل بحجم العالم!

* * *

فتحتُ هاتفي المحمول على أغنية لأمّ كلثوم:
«ياللِّي شغلت البال.. يا ريت أكون على بالك..
الوجد له أحوال.. يا ريتني أعرف حالك..
أسأل نجوم اللّيل.. عن لوعتي ونوحي..
تِبقى دموعي سيل.. أصعب على روحي..
أقضي ليلي أبكي.. والبُعد شاغلك منِّي..

وأفضل نهاري أشكي.. الكلّ مين يرحمني..
يا ريت أكون على بالك».

* * *

«لم يقل أيَّ كلمة
وأنا لم أجبه
هكذا انتهت هذه المحادثة الجميلة».

(أوريليان شول)

* * *

أنهضُ من مكاني، بعينيها اعتذار لا أدري سببه..
بعينيّ حبٌّ غامر..
بعينيَّ حبٌّ سأشرعه كلُّه لإحضار الأرض عند قدميها..
بعينيَّ حبٌّ أوسع من مليون شاطئ، أكبر من مليون كوكب، أعمق من مليون فضاء ومجرَّة وعالم..
بعينيها شيءٌ لم ألمحه وأفهمه من قبل، نظرة غريبة قادمة من أرض علامات الاستفهام، أنفاسٌ تحمل رائحة الدّهشة، والصَّدمة..
أحدق بوجهها:
- أنت مذهلة..
تنظر لي، بصمت..
- .. أحبك يا (عليا)!
يغمرنا صمتٌ شفافٌ..
.. قاسٍ!

* * *

تسألني بصوت هادئ؛ عميق:
- كم عمرك يا (عماد)؟!
- أكبر منكِ حتماً؛ إنَّني في الرابعة والعشرين..
لا يبدو على ملامحها أي نوع من الدهشة.. يبدو وكأنها تعرف هذا مسبقاً، تقول:
- إنَّني في الثَّامنة والعشرين!
يتفجَّر الذُّهول منِّي كُلِّي..
يقتحمني مُعتقلاً إيَّاي في سجنه الأسود!

تميل على مكتبها، تتناول حقيبتها، تفتحها وأنا أنظر غير مصدقّ، تخرج منها دبلة ذهبية وترفعها في وجهي، تقول لي وهي تضعها في بنصرها:

- .. إنَّني متزوِّجة منذ عشر سنوات يا (عماد)!

* * *

20

(أمّا بعد)

في جسدي تتدفَّق آلافُ الأنهار المكهربة..

أحدِّق في وجهها؛ يركض عدمِ التَّصديقِ فوق ملامحي، بنفس الوقتِ الَّذي يُعبِّر صدقها عن نفسه في ملامحها، وعينيها، ودبلتها الذَّهبيَّة؛ بكلِّ وضوح!

كلمات كثيرة تحتشد كلُّها في فمي بلا هدف.. أشياء كثيرة أرغب بقولها إلاَّ أنَّني أشعر بي سقطتُ في هوَّة معتمة بغتة..

أنظر لها:

- لكنَّنِي..

تُقاطِعُني:

- اخرج من مكتبي؛ أرجوك..

أكملُ مُتجاهِلاً:

-.. أحبُّكِ يا (عليا)!

بدت كأنَّها لم تسمعني.. أعادت عليّ:

- اخرج من مكتبي؛ أرجوك..

بدت ملامحها في غاية الغرابة إذ قالت هذه العبارة.. هُناك نزيف مدهش يسري تحت جلدها، هُناك جرح في صوتها، هُناك اختناق يمتدُّ من محيط ملامحها؛ إلى خليج تفاصيلها كذلك!

.. أجرُّ جسدي الَّذي تجاوز وزنه ملايين الأطنان دون أن أعرف كيف، وأخرج!

* * *

«إذا كان المُستحيل يجب أن لا يُرتاد؛ فلماذا أيقظتِ في قلبي الرَّغبة التوَّاقة إليه؟!».

(جلجامش)

* * *

أجلسُ في البيت..

(عليا) متزوَّجة وهذا ما حصلتُ عليه منها في آخر المطاف..

كم يدهشني أن يرى المرء بعض الضُّوء في العتمة؛ ليكتشف لاحقاً أنَّ هذا ضوء قلبه المحترق!

كم يدهشني أن يشعر ببعض الدّفء الذي يخفف عنه حدَّة البرد المستفزّ؛ ليكتشف لاحقاً أنَّ هذا نتج من احتراق شرايينه!

«اخرج من مكتبي».. هكذا ببساطة قالتها لي..

هكذا؛ جعلتني أدمنها، وأبتعد عن كلَ الفتيات، وأحبُّها؛ ثمَّ قالت لي هذا..

«اخرج من مكتبي».. ربَّما تقصدُ أن أخرج من حياتها كلِّها، وأن أبتعد عنها قدر استطاعتي، وأن أصمتَ تماماً..

* * *

أتقلَّبُ مكاني كجثَّةِ راقصةٍ ما تزال محتفظة بطاقتها..

هي متزوِّجة، ومنذ عشر سنوات.. أي أنَّ لديها بعض الأطفال حتماً، ولا بدَّ أنَّها تحبُّ زوجها..

هذا النَّوع الرقيق من النِّساء لا يتزوَّج إلاَّ بعد قصَّة حبّ.. زوجها التهمها كثيراً جداً ولا بدّ، هذه عشر سنوات.. يعلم الله وحده كم مرَّة ضاجعها!

أكاد أقيء ما بمعدتي عند وصولي هذه النقطة؛ لا أتخيَّلها بين يديه، لا أتخيَّلها عارية في حضنه، لا أتخيَّله يمارس معها الحب، والجنس، والحياة؛ منذ عشر سنوات!

أفكاري تمزِّقني كسكين.. أشعر بي على وشك الانهيار، وجه (عليا) يملأ مخيِّلتي وناظريّ، قلبي يطيرُ في عذوبة من مكانه ويحلَّق في غرفتي أمام عينيّ..

* * *

الألمُ ينهمرُ منِّي، يغمر كلَّ أجزائي وما حولي كالمطر..

هل سينتهي الأمر هكذا؟!

لا.. هُناك خلل ولا بدّ، لم تقل لي أبداً أنَّها متزوِّجة، لم تلمِّح لي، ثمَّ إنها جاءت معي إلى (جدران) وكانت طبيعيَّة للغاية..

هُناك في مكتبها كنتُ أمازحها كثيراً، أغازلها كثيراً، أضحكُ معها كثيراً..

كانت تستجيب لي بشكل يدعو إلى الدَّهشة..

.. ماذا يحدث؟!

* * *

21

(أمّا بعد)

بهدوئها المعهود، وجمالها، ورقّتها، وأنوثتها، كانت تجلس خلف مكتبها..

أدخلُ من الباب وأتوجَّه نحوها مباشرة:

- (عليا)..

ترفع عينيها لي.. لقد كانت تبكي أمس! هذا ما تحكيه عيونها المنتفخة، ووجهها المتعب، وملامحها المرهقة..

- نعم يا (عماد)..

صوتها قتلني، هناك صوت للأشجار حين يقتلعها عامل بلديَّة بلا رحمة، هناك صوت لغيمة تفتّتها أشعّة شمس قاسية..

صوتها متهالك..

- ما بك؟!

- حقاً تحبُّني؟!

سؤالها زلزلني كلِّي.. هُناك كنوز تختفي خلف هذا السُّؤال!

- نعم أحبُّك..

أقولها وأجلس، تنظر لي وتحدِّق في عينيّ:

- لكنَّني متزوِّجة!

أصمتُ.. هذه كانت أكبر مفاجأة لي في حياتي..

- تحبّينه؟!

- من؟!

- زوجك..

تصمت.. يبدو على ملامحها التَّفكير..

- .. هل تشعرين بالسَّعادة معي؟!

- ماذا؟!

أعيد عليها السُّؤال، عالماً أنَّه سيتجسَّد داخلها على هيئة متاهة:

- عندما آتيك هُنا إلى مكتبك، عندما أمازحك، عندما خرجنا إلى (جدران) ذات يوم.. هل شعرتِ بالسَّعادة معي؟!

- جداً..

تقولها، والخجل ينبثق من عينيها، وجنتيها، شفتيها، وجهها كلّه..

- هل تحبِّينه؟!

تتنهَّد، وتثير ذهولي بدمعة خفيفة نزلت بحياء من عينها اليسرى:

- لا أعرف!

* * *

«تستطيع الشّمس أن تجفّف مياه المُحيط، لكنَّها لا تستطيع أن تجفِّف دموع المرأة».

(سقراط)

* * *

22

(أمّا بعد)

لم أطلب منها هذا، لكنَّها مسحت دمعتها بسرعة، وبدت مختنقة ومزدحمة بمئات الكلمات الَّتي ينبغي لها التخلُّص منها، أو مشاركة أيّ أحد فيها:

- قبل عشرة أعوام تزوَّجت.. إنَّه مجرَّد زواج تقليدي مملّ معتاد، وافقتُ على أن أتزوَّج منه لئلاَّ يتكلَّم النَّاس عنِّي وعن أهلي؛ فلن أغفر هذا لنفسي أبداً!

كنت قبله مخطوبة لشاب يحبُّني، لكنَّ الأعشاب الضارَّة إذا زُرعت بتربة جيِّدة فإنَّها تنمو وتفسد غيرها.. وهكذا كان تدخُّل أقاربنا بنا، وأهله بي، مما جعلنا نترك بعضنا بعد ارتباط دام عدّة أشهر..

وقتها أصاب سمعتي شرخ طفيف.. النّاس يحبُّون تحليل الأمور وفقاً لما يريدون، ولمَّا كنت جميلة في تلك الأيَّام؛ لم يتحمَّل أيٌّ منهم فكرة أنّ الخطبة فُسخت بسبب المشاكل العائليّة؛ بل لأنَّ هُناك علَّة فيّ..

هكذا انتشر الخبر كالنَّار في الهشيم، وجاء ابن عمِّي بنقوده ليتزوَّجني، أو ليتزوَّج جمالي بالأحرى؛ وسعد والدي بالأمر جداً؛ ورأى في هذا قتلاً للشائعات..

بكيتُ كثيراً، وكنت أعلم أنَّه سيئ الأخلاق رغم وفرة ماله، وشكوت لأبي وأمِّي بدون فائدة؛ أعجبهم ما عرضه ابن عمِّي عليهم..

وتزوَّجته، وها أنا معه منذ عشرة سنوات، وعندي منه طفلين!

* * *

«النِّساء خُلقن ليتزوَّجن، والرِّجال خُلقوا لكي يبقوا عازبين.. مِن هُنا كان كلُّ السُّوء».

(ساشا غيتري)

* * *

أنظر لها:

- ما اسمهما؟!

تبتسم بمرارة:

- (صادق) وهو ابني الكبير، عمره سبع سنوات.. (نيفين) وهي ابنتي الصّغيرة، عمرها أربعة أعوام.. وهما حياتي كلُّها..

ابتسامتها عجيبة، لكنَّني أسألها:

- كيف هي حياتك معه الآن؟!

- أخبرتك أنَّها حياة زوجية مكرَّرة ومعتادة.. يخرج إلى عمله صباحاً ويعود مساءً، لا يهمُّه إلاَّ أن يجد الفطور جاهزاً حين يستيقظ، لا يريد إلاَّ أن يجد الغداء جاهزاً حين يعود، الحياة الزوجية حقوق وواجبات فقط لا غير..

- والمشاعر؟!

تضحكُ بأسى عند هذه النقطة..

- ألف مرَّة تجادلنا حول هذا.. مشكلتي أنَّني رومانسيَّة بينما هو ليس أكثر من حائط صلب! حاولت معه كثيراً ولم يتغيّر أبداً.. أبكي وأجرِّب أن أغيِّر من شخصيَّته، ومن مشاعره، ومن عواطفه؛ لكنَّه لا يقابلني إلاَّ بالجمود والبرود..

المسكينة!

- .. كلامي بنظره ليس إلاَّ ثرثرة.. أنا كلِّي لست أكثر من آلة مهمّتها خدمته وتأمين راحته وإمتاعه..

- إنَّك لا تدركين كم أنتِ رقيقة!

تبتسم بخجل.. يرقصُ قلبي كالمجنون داخلي.. إنَّها تستجيب لكلامي وتجعل خلاياي تغنِّي باسمها وحبِّها.. هل كلّ ما بداخلي حبّ؟!

أكمل لها:

- أحبُّكِ..

تنظر لي بألم:

- تؤلمني بكلامك هذا يا (عماد).. أنا متزوِّجة يا (عماد)، ولي طفلان منه، ولن يحدث بيني وبينك أيّ شيء..

أنهض من مقعدي، أستند على مكتبها بيديّ، أقول لها:

- ما مشاعركِ نحوي؟!

تسكت وتخفض عينيها بألم؛ بينما أنا أتنهَّد، وأخرج من المكتب..

.. بهدوء!

* * *

23

(أمّا بعد)

يتَّصل بي المدير المسؤول عنِّي:

- أستاذ (عماد)؛ نحن بحاجة ذلك التَّصميم..

- لقد سلَّمته لقسم الهندسة، سيكون جاهزاً على مكتبك خلال يومين..

- أين أنت؟!

- في البيت!

- لم تحضر منذ يومين فما الأمر؟!

- مُتعب قليلاً..

- سلامتك..

* * *

تتَّصل بي (هند)، (أحلام)، (رزان)، (آيات)، (غدير)، (عبير)، وغيرهنّ؛ لكنَّني أعتذر منهنَّ جميعهنّ..

لا أريد أيّ شيء منهنّ..

لا أريدهنّ..

.. (عليا) تمكث بي أكثر منِّي!

* * *

قلبي يكبُر..

.. قلبي يتضخَّم!

* * *

«المرء لا يقع في الحبّ ولا يخرج منه.. المرء ينمو في الحبّ».

(انتصار العقيل)

* * *

«كلّ رجل يتحمَّس في وقت من الأوقات، فمنهم من يتحمَّس لمدَّة نصف ساعة، ومنهم من يتحمَّس لمدَّة ثلاثين يوماً، أمَّا الذي يظلُّ متحمِّساً مدَّة ثلاثين عاماً فهو وحده الجدير بأن يتزوَّج، كي يحقِّق نجاحاً عظيماً في الحياة العائليَّة، ويحظى بالسَّعادة الزوجيَّة».

(أمين سلامة)

* * *

في المكتب من جديد..

أصبحتُ - مؤخراً - أجلس لبعض الوقت، وأتحاشى الجلسات الطويلة.. هناك موظفون هنا، هناك موظفات كذلك.. لو أنّ الأمر متعلق بي لأمضيت يومي هنا؛ لكنّ العمل ينادي، والشكوك تحتاج عود ثقاب لتشتعل!

تقول لي:

- بالأيَّام الأولى الخادعة من زواجنا كان رائعاً كضحكة قمر.. كان يملك بعض الرقة والإحساس، كانت لديه بعض المشاعر، بعد هذا تغيَّر حاله وما زال حتَّى الآن يغمرني تغيُّره بغزارة..

أحدّق في ملامحها وهي تتكلَّم؛ أحدِّق في صوتها، كلامها، أسلوبها، حركاتها، جمالها وفتنتها، أنوثتها الطاغية، سحرها المذهل..

هل هو أعمى إلى هذا الحدّ؟!

ظننتها تُبالغ؛ لكن من المستحيل أن يكون كلّ هذا مبالغة.. هُناك حدّ للشك بعدها لا يعود بوسع المرء أن يشكّ فهذه حقائق؛ كلُّها حقائق!

* * *

«الزّوجة لا ترى البتَّة ما نفعلُ من أجلها، إنَّها لا ترى إلاَّ ما لا نفعله من أجلها»!

(جورج كورتلين)

* * *

أتذكَّر هذا القول وأسألها:

- لا بدَّ أنَّ هناك أفعالاً جيِّدة له؛ أليس كذلك؟!

تبتسم بهدوء، تجيبني:

- أفعاله الجيِّدة هي الواجبات الزّوجيّة، واجباته تجاهي، واجباته تجاه بيته، وتجاه أطفاله، إنَّه يحبُّهم حباً جماً.. لكن عندما يتعلّق الأمر بي أو بعواطفي فإنَّه يصبح مثل شخص أمِّيّ أمام لعبة الكلمات المتقاطعة! هل تتخيَّل أنَّه لم يقل لي أيَّ كلمة تتعلّق بحبِّه أو مشاعري تُجاهي طوال السنين الماضية كلّها؟!

أسبحُ في بحر الذُّهول بعد قولها..

هذا الرجل ليس حائطاً صلباً! هذا مجنون حقيقي!

- حقاً؟!

- نعم.. لم يقلها لي أبداً!

- ولا مرَّة؟!

- ولا مرَّة..

أقول:

- أحبُّكِ جداً إذن يا (عليا)..

- أرجوك توقَّف يا (عماد).. لا يحتمل قلبي ما تقوله لي..

أنظر في وجهها، أغنِّي لها، أنهض وأرقص، يبدو الخجل الشديد في ملامح وجهها وحركاتها، كلُّ ما فيها يشي بخوفها من أن يرانا أحد..

أجلس بعد أن طلبت منِّي:

- أرجوك اجلس..

أنظر في عينيها دون أن أقول شيئاً، تتنهّد، تقول لي:

- هناك شيء بيننا.. أشعر بهذا، لكنّني سأكون خائنة إن سمحت له بأن يستمرّ.. يجب أن يتوقّف هذا..

أهمّ بأن أقول شيئاً، لكنّها ترمقني بنظرة غاضبة فهمت منها أنّها لا تريد أيّ مقاطعة لها قبل أن تكمل ما تريد إخباري به.. تردف:

- .. شعور الخيانة مؤلم يا (عماد)؛ إنه ذات الشعور الذي تحسّ به المقبرة حين تمتلئ بالقمامة، ذات الإحساس الذي تعيشه النار عندما تحرق روحاً! لا أريد أن أعيش هذا الشعور ولو للحظات..

أنظر في وجهها دون أن أعلّق، أنظر إلى يديها المرتجفتين!

* * *

«يا للسماء! ما كنت أعتقد أنّ قلبي يرقص على أطراف أناملها».

(بيرون)

* * *

تستطرد، وصوتها يتهدّج:

- .. أكون سعيدة وأنا معك؛ لكنّ هذا يمزّقني.. وجودك بجانبي ليس إلاّ رصاصة تغتال اطمئناني! أخاف أن يكون هناك كلام من أحد الموظفين، أخاف أن أنتقل معك إلى مرحلة جديدة أخافها، أخاف أن تتعقّد الأمور بيني وبين زوجي، وأطفالي.. أنا خائفة يا (عماد)..

تقولها، وترفع يديها إلى عينيها..

أنظر لها في ألم.. أخشى أن يعبث بي شيطان الإزعاج الآن؛ أخشى أن تقول ما أخشى أن تقوله!

- (عماد)..

- نعم يا (عليا)..

- لا أريد أن أراك مرّة أخرى؛ حبّك يعذّبني..

صرخات كثيرة تندلع فجأة في شراييني، فمي أصبح بغتة ممتلئاً بالمرارة.. الأنين يكاد يفجّر رأسي..

أنهض ببطء؛ لا تقول شيئاً..

- لكنّني أحبّك يا (عليا)..

أنا ضعيف..

أشعر أنّني الضعف ذاته؛ جرذان الهشاشة تفترس خلاياي كلّها.. إنّني أنزف.. أقف وأنظر لها وأنزف؛ إنّني موبوء بالضّعف..

يا إله السماوات!

لا تجيبني..

.. أجرّ ذاتي إلى الباب، وأخرج!

* * *

الفصل الثاني [(2)]
هِيَ

(2) هذا ما كتبته..

1

عندما خرج (عماد) من المكتب؛ لم يعد بإمكاني الصمود أكثر..

.. إنّني أبكي!

* * *

«شايف البحر شو كبير؟ كبر البحر بحبّك..

شايف السما شو بعيدة؟ بعد السما بحبّك..

كبر البحر وبعد السّما..

بحبّك، يا حبيبي، يا حبيبي، يا حبيبي بحبّك..

نطرتك أنا، ندهتك أنا..

رسمتك على المشاوير..

يا همّ العمر، يا دمع الزّهر..

يا مواسم العصافير..

ما أوسع الغابة، وسع الغابة قلبي..

يا مصوّر ع بابي، ومصوَّر بقلبي».

(فيروز)

* * *

أتذكّر كلمات الأغنية، أتخيّلها في قلبه؛ وأرتجف..

مذعورة؛ أعترف بهذا..

خائفة؛ أقرّ بشعوري..

مطمئنّة؟!

جداً.. وأنا معه وحده..

وجودي مع (عماد) يخلع معطف الجفاف عن جسدي، يعيدني من جديد كما كنت أشتهي وأريد.. يرجعني فتاة صغيرة، طفلة، محشوّة بالبراءة والحنين والحبّ والمشاعر.. مشاعري تلك التي كاد يقتلها (مصطفى)..

إنّه زوجي وأب أولادي، لم أصل بعد إلى مرحلة بغضه أو مقته، لكنني لم أعد أطيق الجلوس معه.. بروده يطفئ أضوائي، قسوته تمنع أصوات الموسيقى من الوصول إلى قلبي وخلاياي.. تجاهله لرغباتي يلقيني على رصيف العزلة!

أبداً لم يسمع أصوات استغاثتي؛ ودوماً كان تعامله معي غريباً..

مرّة أظنّه يحبّني، مرّة أظنّه يكرهني، مرّة أظنّه يتجاهلني، مرّة أظنّه يهتمّ بي..

.. ما أدركه أنّه سرق حريّتي مني، وألجم رغباتي كلّها!

* * *

أحمل جسدي وأذهب إلى البيت، يمرّ عليّ (مصطفى) ويأخذني كالعادة من أمام باب الشركة..

أدري لم يفعل هذا، يأخذني ليس لأنّه يخاف عليّ، ولا لأنّه يحبّني..

لست ساذجة؛ فأنا ملكه!

أنا ملكه، هكذا يراني، هكذا أخبرني عدّة مرات في نوبات غضبه، أو في هدوئه.. لست إلاّ مجرد ملكيّة خاصّة له..

قال لي (عماد) منذ أيّام:

- لا تريدين حتماً، أن تصلي للمرحلة التي قال عنها (آييل آرمان): «مجنونة بحطام جسدها»؛ أليس كذلك؟!

* * *

نصل البيت، يستقبلني (صادق) و(نيفين) بالقبلات.. أضمّهما، أقبّلهما، أترك بصمتي على وجناتهما..

أحبّهما جداً، أعتبرهما استثماري الوحيد الناجح.. فلا طموح لي ما دامت وظيفتي كما هي، وكما يلمّح لي (مصطفى) كثيراً، بأنّه يريدني أن أستقيل، فهو يكره المرأة العاملة، ويظنّ أنّ كلّ المنادين بأهميّة عمل المرأة ليسوا إلاّ جواسيس وعملاء!

أخلع ملابسي، يجلس (مصطفى) أمام التلفاز ليتابع نشرة الأخبار، بينما انصرف الطفلان إلى غرفتهما ليلعبا.. أنهرهما وأنا أتّجه إلى المطبخ؛ طالبة منهما أن يدرسا قبل اللعب؛ مجانين هؤلاء الأطفال..

لكنّني أحبّهما بعنف؛ هذان أجمل ما حصل معي منذ ارتدائي الثوب الأبيض..

أبدأ بتسخين طعام الغداء الّذي طبخته منذ الأمس؛ ويأتيني بعدها صوت (مصطفى) وهو يصرخ، شاكياً من هموم الحياة التي لم توفّقه بأيّ شيء، رغم أنّه ناجح عمليا، بمقاييس من حولنا..

.. أتنهّد، أذكر نظرات (عماد) لي!

* * *

«لا يمكننا الإفراط إلاّ في الأشياء الجيّدة».

(مونتاين)

* * *

2

يأتي المساء، نجلس حول التلفاز، نشاهد الحلقة الجديدة من ذلك المسلسل السوري الذي نتابعه؛ كلّنا..

قصّة الحبّ الّتي أمامي رائعة، الشاب يحبّ ابنة الجيران ويغدق عليها من حبّه.. عشقه موسيقيّ، عشق بهي الرائحة تحلم كلّ النساء بالوصول له، يحضر لها الورود، يجلب لها القصائد المسروقة..

أنظر إلى (مصطفى) بطرف عيني، لا يبدو مهتماً بشيء، بين يديه صحيفة اليوم ولا ينظر للتلفاز أصلاً، يكتفي بنظرة سريعة كلّ هنيهة على الشاشة..

(عماد)!

لم يظهر وجهك كلّ لحظة أمام عينيّ؟!

ما هذا الشّعور العاصف الذي يثور داخلي؛ حين أذكرك؟!

هل هذا حقيقي؟!

لا..

إنّني أتوهّم، وساوس شيطاني تغمرني..

أعوذ بالله..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

* * *

«لا..

أنا لا أفكِّر به

لكنَّه أكثر وفاءً

إنَّه يفكّر بي دائماً».

(إبراهيم نصر الله)

* * *

يرنّ هاتفي المحمول بغتة..

أنظر إلى الشاشة بقلق عارم..

أعرف هذا الرّقم جيداً!

أنظر إلى (مصطفى) من جديد، لا يبدو عليه الاهتمام، تناسيه هذا يكسرني لكنّه مفيد لي الآن.. ماذا هناك؟!

أنهض وأتّجه إلى غرفة النوم عارفة أنّ (مصطفى) غارق في صحيفته، أضغط زرّ إجابة الاتصال وأنا أهمس بذعر:

- (عماد)؟!

* * *

«أريدكِ..
أعرف أنّي أريد المحال
وأنَّكِ فوق ادِّعاء الخيال
وفوق الحيازةِ، فوق النَّوال
وأطيبُ ما في الطُّيوب
وأجمل ما في الجمال
أريدكِ..
أعرفُ أنَّكِ لا شيءَ غير احتمال
وغير افتراض
وغير سؤال، يُنادي سؤال».

(نزار قباني)

* * *

.. يقولها (عماد) لي بصوته؛ ويغلق الخطّ!

* * *

ما الذي يفعله بي هذا الشاعر؟!

* * *

«إنّه الشاعر
الذي لا يملك
أن يشبه نفسه
وهو يرزح
تحت وطأة
غموضه السّافر..
بيدَ أنَّه
يُفلح دوماً
في أن يشبه
حصاناً يزأر

كالثَعبان الطائر!».

(زياد صلاح)

* * *

.. ما الذي تفعله بي أيُّها الشاعر؟!

* * *

3

يدخلُ (صادق) و(نيفين) إلى غرفتهما؛ جاء وقت النوم..

نذهب أنا و(مصطفى) إلى غرفتنا، ندخلها ونغلق الباب بالمفتاح، يخلع قناعه وملابسه، يخلع عنّي ملابسي، نستلقي على فراشنا البارد.. الذي أكرهه!

يضاجعني، بقوّة..

أتألم، وينتشي..

يصل الذروة فيما يفعله، ويصل مراده، يقبّلني..

.. ينام!

* * *

هكذا، ببساطة؛ نام..

ماذا عن الذي أريده أنا؟!

لم يرميني في هذا المستنقع العميق، الغارق في التجاهل والتناسي لرغباتي؟!

لماذا يحرقني باستمرار؛ بفعل ما يمتعه ويشعله هو؛ فحسب؟!

أنظر إليه وهو نائم..

لم يعاملني بالرومانسية التي أريدها كما أريد، لم يهتمّ بأيّ شيء أحبّه.. كلّ تركيزه كان على الأطفال..

منذ عشر سنوات ونحن هكذا، اهتمامه بي كان يزيد إذا أراد من جسدي شيئاً.. الهدايا لا يحضرها إلاّ مرّة كلّ سنة..

الورود؛ هذه أمنية خرافية!

الكلمات الجميلة؛ أمام بعض الناس، كلّ عدّة شعور..

كلمة (أحبّك)؛ لا شكّ أنني جننتُ!

* * *

«أنا من قبلكِ مررتُ فيّ كلّ الطرق على النّساء، لكنّي ما زلتُ أجهلُ إلى الآن كيف وصلتُ إليكِ؛ حبّك، على ما يبدو، من ذلك الذي قال باولو كويليو أنّه مليء بالفخاخ الذي عندما يريد أن يظهر؛ يُظهر لنا نوره تماماً، ولا يسمح لنا أن نرى الظّلال الّتي يولِّدُها هذا النُّور».

(نادر رنتيسي)

* * *

.. أتذكّر شيئاً مشابهاً لهذا؛ قاله (عماد) لي!

ماذا كان يقصد؟!

* * *

(مصطفى) بجانبي؛ وأنا مع (عماد)..

كفراشة؛ يطير عقلي من مكانه، يحلّق بعيداً عنّي، يعود إلى أيام قليلة خلت..

أنا في المكتب، (عماد) أمامي، عيناي على الشاشة، عيناه عليّ..

- وجهك مرآة للفردوس..

- .....!

- .. تطلُّ الشمس من عينيكِ يا (عليا)؛ تجعلان قلبي ينبض كشلال.. أنصتي لكلماتي واسمعي همسي؛ جسدي يحمل حروفك..

- .....!

- .. في السّماء أكون، وأنا معكِ.. فتقبّلي حبّي يا ملكة الكون، واعتبري قصائدي فيكِ نجوماً جديدة يطرّزها الفضاء في ردائك..

- .....!

- .. سيّدة السحر الاستثنائية أنت، وذات الأماكن المرسومة للعشّاق.. المصقولة بتفاصيل الملائكة؛ الممعنة في التهامي من الداخل؛ واحتلالي في العُمق..

- .....!

- .. تنتشرين فيّ، على امتداد مساحات روحي، فلا تمنحيني المنع، ولا توقفي الهطول بقانون يجعل الغيمَ غير قادر على المسير وممارسة مهامه.. لستُ سيجارة فلا تشعليني، ولا تحرقيني، ولا ترمي رمادي في منفضة عتيقة..

- (عماد)!

- .. وجودكِ معه يزيد في قتلي، يزيد في قتلك.. لا تجرحي نفسكِ أكثر؛ لا تشتري الأضواء التي تهبُ الظلام.. لا تفعلي ما يزيد من الانهيار..

- وماذا أفعل إذاً يا (عماد)؟!

- .....!

* * *

«أرى الصّمت حصى في منقلة الكلام

أرى يديّ

تجمعان الحروف من رماد الحروب

أرى العناكب

تنسج مفارش المائدة

أرى الموت

يتوكأ عصا أسمائه

طارقاَ باب حجرتي

ويحاورني».

(أحمد اسكندر سليمان)

* * *

.. هكذا يدور القارب الذي يحمل دماغي؛ في رأسي!

لا أفهم شيئاً..

لا أدرك شيئاً..

لا أعرف شيئاً..

.. ماذا تريد يا (عماد)؟!

* * *

4

تمرّ عدّة أيّام..

لم يتّصل بي (عماد) بعد ذلك الاتّصال، لم أره في الشركة، لم أعرف عنه أيّ شيء ولكنّني لم أسأل أحداً عنه..

الفضول كان يتقمّصني، ويستعمرني، وكنت قد اشتقته!

أكره أن أعترف بهذا ولكنّني اشتقت له، لقد غطّاني بما كنت أفتقده، لقد استطاع أن يخترق حاجزاً كان مقفلاً من زمن..

إنّه يرى فيّ كلّ ما لا يراه (مصطفى) فيّ!

إنَّني أرى فيه كلّ ما هو ليس موجوداً في (مصطفى)!

(عماد)..

.. إنّك تكمل الثقوب الناقصة في جدار حياتي!

* * *

«هذا الرّجل الذي يتذمّر دائماً

يستحقّ الرّفس

في مكان من جسمه

يمثّله تمثيلاً تاماً».

(سيفان)

* * *

.. أتذكّر هذه الكلمات التي أخبرني إياها (عماد) مرّة؛ وأبتسم.. قالها بعد أن أخبرته عدّة أمور عن (مصطفى)..

.. أين أنت يا (عماد)؟!

* * *

مرّت أربعة أيام قبل أن يظهر..

كنت مشغولة على الهاتف مع أحد عملاء الشركة، والذي يرغب بالحضور قريباً لأجل اتفاقية جديدة بين شركته وشركتنا؛ عندما رأيته يقف على باب المكتب، وهو يحمل شيئاً كبيراً في يده..

أنهي المكالمة على الفور، أقول له:

- ماذا تفعل؟!

يقترب دون أن يتكلّم، يرمقني بابتسامة لا تحمل أيّ انفعالات، يناولني وردة بيضاء وهو يقول:

- أعرف أنّها لا تليق بكِ، فاعذريني..

أنهض، أتناول الوردة منه، أضعها بجانبي..

- ماذا تفعل؟!

- اشتقت لكِ..

يقولها ويجلس على المقعد المقابل لي..

- وماذا بعد؟!

- ماذا؟!

- وماذا بعد يا (عماد)؟! أنت تحبُّني، وتشتاق لي، وتتّصل عليّ لتسمعني قصيدة نزارية بصوتك، وتترك لي بعض القصائد على مكتبي أحياناً، وتتجاهل دوماً أنّني متزوّجة وعندي طفلان.. ما الذي تريده؟!

أقولها بعصبية، وأنا أنظر تارة إليه، وتارة إلى شاشة الحاسوب، وصدري يخفق..

ينظر لي في دهشة، لم يكن مستعداً لهذا كما أرى..

يدوم الصّمت بعض الوقت، أنقر بأصابعي على سطح المكتب بتوتّر.. الحقيقة أنّني أفكّر به كثيراً، ما أقوله له ليس حقيقة، إنّني مخادعة، هناك بذرة حبّ تنمو في داخلي؛ ولا أستطيع أن أنكرها.. ولكن..

- .. ماذا بعد يا (عماد)؟!

يرمقني قليلاً، نظراته النفاذة تلجني حتّى أعماق روحي.. (عماد) يجيد اقتحام الشخص المقابل له عن طريق عينيه..

ينهض فجأة، يقترب من المكتب ويستند بذراعيه عليه، يميل إلى الأمام وأتراجع إلى الخلف قليلاً..

- أحبّك يا (عليا)، أحبّك وسأجد طريقة للجواب عن سؤالك..

يقولها، يستدير، يخرج من المكتب مباشرة..

تبقى عيناي مسمّرتان لدقيقتين بعد أن خرج، أتنهّد، أنظر إلى الدبلة في يدي، أميل وأتناول الوردة البيضاء..

* * *

«لا أخشى في هذه الحياة سوى ذلك الّذي ملك قلبي، إذ هو وحده القادر على أن يمنحني السّعادة أو الشّقاء».

(مدام بلاتشكوت)

* * *

5

وتمرّ أيام..

(عماد) يراوغ قلبي، يراوده عن نفسه، يرسل لي عدّة رسائل هاتفية في الصباح، والظهر، والعصر، والمغرب، والليل.. يترك لي باقة ورد صغيرة على مكتبي، إنها تكون هناك قبل وصول أيّ أحد من الموظفين، يرسل لي بريداً إلكترونياً فيه قصيدة جديدة لي..

رومانسيته تأسرني..

رقته معي تثيرني..

كلامه يكسر جبال الجليد الذي بناها (مصطفى)، يفتتها ويجعلها كالغبار.. لم أره منذ أن وعدني بجواب لسؤالي، لكنّني أراه بما يرسله لي، من كلام، وورود..

.. هل أحبّه؟!

* * *

نشاهد المسلسل السوري، أشاهد البطلة مع حبيبها..

أكاد أجنّ!

لماذا أرفض هذا الطّراز من الحياة؟!

ولأجل من؟! هذا الرجل الضخم الذي لم يهتمّ بي أبداً في السنوات الماضية؟!

لأجل (مصطفى)؟!

.. لأجل (صادق) و(نيفين) الّذين لا يعرفان شيئاً عما يجري في أعماق أمهما؟!

* * *

أقرأ رواية عاطفية.. أكاد أجنّ!

* * *

مزيد من الرسائل الهاتفية، مزيد من القصائد المسموعة على الهاتف، مزيد من رسائل البريد الإلكتروني، مزيد من الورود، مزيد من الورود، مزيد من الورود..

* * *

يدخل (عماد) مكتبي، يتّجه نحوي مباشرة، أرفع عينيّ نحوه، يقول:

- أحبّك..

أصمت، أنظر في عينيه..

- .. (عليا)..

أبلع ريقي:

- نعم..

يصعقني حين يقول:

- هل تتزوّجينني؟!

* * *

6

- هل جننت؟!

- ليس بعد..

- لكنّني متزوّجة!

- متزوّجة لا تحبّ زوجها..

- من أخبرك بهذا؟!

- أنت..

- كيف؟!

- كلّ ما فيك يقول هذا، تقبّلك لكلامي ورسائلي يقول هذا، سعادتك برؤيتي تقول هذا، غضبك حين تتكلّمين عنه؛ يقول هذا..

- حسناً؛ لكنّني متزوّجة..

- ليس مهماً، أريد أن أتزوّجك..

- ما الذي تقوله يا (عماد)؟!

- تطلّقي منه!

- .....!

- تطلّقي منه يا (عليا)، أريدك، أحبّك، أريد الزّواج منكِ..

- لكنّك أصغر منّي!

- المشكلة ليست بالعمر؛ يفتح الحبّ جميع الأبواب..

- والأطفال؟!

- سأحبّهما وأربّيهما كأطفالي..

- و(مصطفى)؟!

- عليه اللعنة! لا أطيقه..

- وماذا سيقول النّاس؟!

- لا يهمّني أحد..

- سيشوّهون سمعتنا إن صار هذا..

- لن يشوّه سمعتنا أحد..

- لا أصدّق أنّني أخوض معك هذا الحديث!

- لا تنكري أنّك سعيدة معي..

- (عماد)..
- هل تتكرين؟!
- (عماد)!
- هل؟!
- .....!
- هل تتكرين يا (عليا)؟!
- لا..
- ماذا تنتظرين إذاً؟!
- هل تتوقع الموافقة من أهلي؟!
- سأقنعهم..
- كيف؟!
- لي أسلوبي..
- سيرفضنا المجتمع!
- ليذهب إلى الجحيم..
- أنت شاب وأنا مطلّقة!
- لكنّي أحبك..
- ستجد من يسعدك يا (عماد)..
- لا أريد سواكِ..
- لكنّني لا أستطيع..
- أحبّك يا (عليا)..
- هل تدرك خطورة ما تقوله؟!
- نعم..
- هل تعرف ماذا تطلب مني؟!
- أطلب منك أن تجيبي قلبك..
- وماذا عن العقل؟!
- دعيه ينام بعض الوقت..
- وإن استيقظ؟!
- سنجعله ينام من جديد..
- لا أستطيع يا (عماد)..

- أحبّك..

- لا أستطيع..

- أحبّك..

- لا أستطيع..

- أحبّك..

- لا أستطيع!

- أحبّك!

* * *

«الحبّ حلم وخيال جميل، يموت عندما يصطدم بحقائق الحياة المرّة».

(لونجفلو)

* * *

يؤثّر بي كلّ ما يفعله؛ (عماد)..

رسائله ازدادت، اتصالاته ازدادت، كلماته ازدادت، عاطفته ازدادت.. وأنا هشّة عاطفيّة، يؤثّر بي كلّ ما يفعله ويقوله ويحكيه، صوته صار حولي ومعي بكثافة، يحيطني بغلاف حنون لم أعشه من أحد من قبل..

(عماد)؛ لقد فتحت أبواب نفسي..

(عماد)؛ لقد أسرتني ووصلت إلى أعماقي..

.. (عماد)؛ ها أنت تتواصل معي عبر نقطة ضعفي!

* * *

7

يجلس أمامي، يطلب مني أن أخبر (مصطفى) بتأخّري اليوم..

- لماذا؟!

- أخبريه بهذا فحسب..

أتصل فيه وأخبره، لماذا أوافقك يا (عماد)؟!

لا أدري!

- هناك عمل طارئ..

- وكيف ستعودين؟!

- مع سكرتيرة مدير الشركة، لا تقلق يا (مصطفى)..

يسألني زوجي وأجيبه..

أنهي المكالمة وألتفت إلى (عماد)، يقول لي:

- أراك بعد ساعتين..

أعقد حاجبيّ وأسأله:

- لا تريد إخباري الآن عن أيّ شيء؟!

- كيف ستكون مفاجأة إن أخبرتك؟!

ذات العبارة القديمة المستهلكة، يقولها فأبتسم:

- حسناً يا (عماد)..

يبتسم ويخرج..

* * *

«يظلّ الرجل مغمَض العينين، لا يحسّ بدفء الحياة، أو جمال الطبيعة، أو صفاء السماء، أو تغريد الطيور، أو اشتعال الرغبة، أو مطامع الحياة، حتّى تفتح المرأة عينيه، ولكن ويل للرجل الذي لا يفتح عينيه في الوقت المناسب».

(ديل كرنيجي)

* * *

ينتهي الدّوام، أبقى في مكتبي..

تمرّ بي بعض الزميلات، أخبرهنّ أنّ عندي عمل إضافي مع قسم الهندسة، لا أخبرهنّ شيئاً عن (عماد)، ولا حتّى الاسم.. أكره النظرات الخبيثة التي كانوا سيرمونني بها حتّى ولو على سبيل المداعبة!

أجلس، أكمل بعض الأوراق..

هدوء في الشركة!

يدخل (عماد) بغتة..

متأنق كما يجب أن يكون الرجل متأنقاً، ابتسامته واسعة أحبها، عيناه تنطقان بالحبّ والعشق..

لماذا يعشقني؟! ما كلّ هذا؟!

(عماد) يعرف..

يقترب منّي، يضع الباقة أمامي، يدور حول المكتب، أنهض من مقعدي دون أن أتكلّم..

أنظر في عينيه؛ يبدو وسيماً للغاية، رائحة عطره تثيرني، أحاول ألاّ أظهر له أيّ انفعال، أحاول أن أخفي كلّ ما تصرخ به أعماقي تحت قناع سميك..

يباغتني، يمدّ يده ويختطف يدي..

لأوّل مرة؛ تذوق يدي طعم يده!

* * *

«الحبّ ضباب كثيف يكتنف النّفس من كلّ ناحية، ويحجب عنها رسوم الوجود، ويجعلها لا ترى سوى ميولها مرتعشة بين الصّخور، ولا تسمع غير صدى صراخها آتياً عبر الوادي».

(جبران)

* * *

لأوّل مرة؛ يحدث تلامس مباشر بيننا..

لم أعترض، لم أقل أيّ شيء، خفضت عينيّ أرضاً ولم أنطق بحرف.. اكتفى باحتواء يدي اليمنى بين يديه الاثنتين.. رجولته هذه تغمرني برعشة الكهرباء، حنانه هذا يعتقلني ويلقيني في سجن مؤقت هو الذهول..

أكاد أرى حبّه كياناً حياً، يصفعني، يصرخ: استيقظي يا عمياء!

* * *

يمدّ يده اليسرى، يلمس ذقني..

ما زلت صامتة، هناك ألف زلزال، وبركان، ومطرقة، وسندان , وشعور، وعلامة استفهام، وأسئلة، وأجوبة، وبروق، ورعود؛ في صدري..

أجزائي يحتشد فيها الترقب، والخوف، والذعر، والقلق، والحب، والمشاعر، والشوق، واللهفة، والرغبة، والأحاسيس، والصّدق..

- أحبّك يا (عليا)..

لا تعليق من ناحيتي، سوى الصمت..

- .. أحبّك..

ما زلت صامتة، عيناي في الأرض.. يمدّ يده إلى ذقني..

- .. أحبّك..

يقولها، وبيده يرفع رأسي، تصطدم عيناه بعينيّ..

- .. تحبّينني؟!

* * *

«سيّدتي، ليس الحبّ أن يطيل أحدكما النّظر إلى الآخر، وإنّما الحبّ أن تنظرا في الاتّجاه نفسه».

(برنارد شو)

* * *

- .. تحبّينني يا (عليا)؟!

تتّقد مشاعري كلّها، تتوهّج أعماقي وتشتعل أحاسيسي..

أشعر بهذا، أعرف أنّني أحبّه، أدرك هذا كما هو يدركه، لكنّه يريد أن يسمعها منّي وبصوتي، يريد أن يتأكّد، ليس واثقاً هو من شيء إلاّ إذا تأكّد..

أريد أن أصرخ، وأن أمزّق الثوب العنيف الذي يرتديني، وأن أرتدي ثوباً آخر مصنوعاً من قماش اللامبالاة، والجرأة، والصدق، والتمرّد..

أريد أن أخبره..

.. هل أخبره؟!

* * *

- .. تحبّينني يا (عليا)؟!

أشعر بها.. لكنّني لا أجرؤ أن أخبره..

لن أخبره!

أهزّ رأسي عدّة مرات، ببطء؛ وأنا أنظر نظرة عميقة إلى عينيه، وهنا؛ تعاقبت في عينيّ عدّة صور، بسرعة غريبة: (مصطفى)، (صادق)، (نيفين)..

هزّة رأس بسيطة، وانقلب كيانه، اتّسعت ابتسامته، ازدحمت عدّة دمعات في عينيه بصورة مباغتة..

و..

* * *

8

فجأة، ودون أن أتوقّع، اقترب منّي بسرعة، أحاطني بذراعيه القويّتين..

.. وقبّلني!

* * *

لم أكن أعرف، أنّه ربما للحبّ نكهة ومذاق..

هكذا!

اشتعال في داخلي، يقبض على شفتيّ بشفتيه وقد أغمضنا بغتة أعيننا دون اتفاق مسبق، كلّ منا يذوق رحيق الآخر، كلّ منا يغلي في داخله..

* * *

«تبقى القبلة الأولى في أعماق ذاكرة المرأة، لتلهب شفتيها إلى الأبد».

(أثيان راي)

* * *

«القُبل، هي موازين حرارة الحبّ، فيها نعلم مدى خطورة حالتنا».

(سالفستر)

* * *

«إنّ التحام شفتي المرأة والرّجل أعظم منحة أعطيت للبشر، بل هي حدّ السعادة القصوى».

(جي دي موباسان)

* * *

أطير، أحلّق، لأوّل مرة في حياتي يقبّلني أحد هكذا!

الصدى الوردي يتردّد داخلي.. يقبّلني (عماد) بشكل أكبر، أعنف قليلاً، أستسلم تماماً له بين ذراعيه، أكاد أسمع صوت النّجوم تغنّي لنا!

* * *

«إنّ النّساء لم يخلقن إلاّ للتقبيل».

(شكسبير)

* * *

«تلتقي قلوبنا، عندما تلتقي شفاهنا في القبلات».

(فلتشر)

* * *

«الابتسامتان اللتان تقترب إحداهما من الأخرى، تنتهيان بقبلة».

(فيكتور هوجو)

* * *

يضمّني إليه أكثر..

أستسلم بين يديه أكثر..

يحبّني،

أحبّه!

* * *

«القبلة زلزال جبّار، تُقاس هزّاته بطول القبلة».

(لورد بايرون)

* * *

«هيا أعطني ألف قبلة، ثمّ مائة..

ثمّ ألفاً أخرى، من بعدها مائة..

وبعد الألف الثالثة، هات مائة، وهكذا..

حتّى إذا طبعنا على الشّفاه

آلافاً من القبلات؛

كففنا عن العدّ

لاختلال الأرقام

فلا ندري كم ارتشفنا من رضاب».

(كاتولوس)

* * *

«اليوم قبّلتني حبيبتي

ولكن، هل ستقبّلني غداً؟

إنّ هذا لا يهمّني

كفى أنّها قبّلتني اليوم

وفي هذا محضُ سعادتي».

(أوستن دوبسون)

* * *

نتوقّف، نرتجف..

ننظر في عيون بعضنا..

أعماقنا ترتجّ في قوّة..

ما الذي فعناه..

.. للتوّ؟!

* * *

«آخر القبلة

كلام كثير لا نقوله

فقط

نُصغي لطرقة خفيفة

على باب لم نوصده».

(زاهي وهبي)

* * *

ما زلت بين ذراعيه..

ينظر في عينيّ، أنظر في عينيه، لا يقول شيئاً، لا أقول شيئاً..

يهمس لي:

- أحبّك..

العالم حولنا صار مدينة أزهار، هناك صوت موسيقى من بعيد، وملامح لأمطار من سعادة، هطلت، وتهطل، وستهطل علينا..

أقول له ذات الكلمة بدون صوت، ودون أن أحرّك شفاهي.. يفهمها من عينيّ، من انغماسي معه في هذه القبلة..

- (عليا)..

- لا تقل شيئاً، أرجوك..

أضع سبابتي على فمه كي لا يقول شيئاً، يصمت، ينتهز الفرصة ويقبّل إصبعي!

أحمل أغراضي، الحقيبة، ملفّ الأوراق، يحاول مساعدتي لكنّني أرفض دون أن أتكلّم..

لم يقل كلمة، خرجت من باب المكتب وأنا أسمع صوته يتنهّد من خلفي.. كلّ أعماقي تتنهّد، كلّ أعماقي على وشك البكاء، جسدي يرتجف..

.. أستقلّ أوّل سيارة أجرة أجدها على باب الشركة، وأنطلق للبيت!

* * *

9

بمجرّد أن وصلت البيت؛ أجريت اتِّصالا مع (مصطفى) وأخبرته أنّي عدت..

أخبرني أنه سيتأخر حتى منتصف الليل، وأنّه يجب ألاّ أقلق عليه، وأنّه ترك الأولاد عند أمّي..

بيت أمّي قريب، يبعد شارعين عنّي، أتّجه إليه مباشرة بملابس العمل، ألقي السلام عليها وأجلس قليلاً معها ومع شقيقي الأعزب، آخذ أولادي، أعود إلى البيت..

أدخل الغرفة، وأبكي..

.. ما الذي فعلته؟!

* * *

أ

أحبّ (عماد) كما هو يحبّني، لكنّ هناك ألف شيء غامض حوله ما زلت لا أعرفه، كما أنّ في الأمر مغامرة كبيرة، ومخاطرة لا يمكنني توقّع نتائجها..

ب

أنا متزوّجة، وما فعلته كان شيئاً في غاية الحماقة.. كنت سعيدة، ولكنّ هذه هي الخيانة بعينها، والسوء ذاته..

ج

لا مجال لنجاح هذا الأمر، عليّ أن أفكّر، سريعاً، وقبل أن أتهوّر بشيء أعمق وأخطر مع (عماد).. عليّ أن أفكّر قليلاً بعقلي قبل عاطفتي..

د

هذا حبّ ولد ليموت، خلق ليُطفأ، ظهر ليُدفن.. هذه علاقة محكوم عليها بالموت قبل أن تبدأ، إنّني فاكهة محرّمة بالنسبة له، إنّني لغة منقرضة بالنسبة لقاموسه، إنّني رداء قلب لا يناسب مقاييسه..

هـ

إنّني امرأة مستحيلة!

و

هل سيتزوّجني إن وافقت على الطّلاق؟! ما الذي سيضمن لي هذا؟! ما الذي سيؤكّد لي فعله؟! هل سأفعلها بهذه البساطة بعد كلّ هذه السنين مع (مصطفى)؟! هل سأخونه وأخون ديني، وأهلي، ومجتمعي، لأكون أنانية لا تريد سوى مصلحة نفسها؟!

ز

حتّى لو حدث هذا؛ لن يكون الأمر في صالح الأطفال.. وسيجدون أنفسهم بين والدين مطلّقين، وربما تحدث مشاكل كثيرة بيننا، وربما يرفع عليّ قضيّة في المحكمة ويحرمني من (صادق) و(نيفين)؛ مما يعني هلاكي، ونفيي إلى أرض الموت الأبديّة..

ح

مهما قال لي فلا أصدّق أنّه سيرضى، لا يوجد شاب يرضى بالزواج من امرأة تكبره ببعض السنوات، وبالذات إن كانت مطلّقة، فكيف إن كان عندها طفلان أيضاً؟!

ط

كيف لي أن أثق به وأن يثق بي بعد ذلك؛ وقد كان - هو - السبب الذي جعلني أترك زوجي؟! ما الذي يضمن لي أن يعاملني بذات المعاملة، وألاّ يتغيّر معي، وأن لا أخونه مع شخص آخر؛ أجمل منه، أو أوسم منه، أو أروع منه؟!

ي

نعم، أنا خائنة مهما جمّلت الأمر!

ك

أولادي هم كلّ حياتي.. لا يستحقّان منّي الركض خلف ما أريد، ونسيان الهدف الأسمى في زواجي كلّه: هُما!

ل

أحبّ (عماد)، لكنّ ما حدث بيننا اليوم قام بفعل عكس ما كان يريد، ويتخيّل، ويتوقّع.. فهذا لم يقرّبني منه أكثر، بل أيقظني!

م

أحبّه، لكنّ ما بيننا مستحيل، ولا يمكن إنجاحه بأيّ وسيلة، وبأي طريقة..

ن

غداً؛ سأخبره بكلّ هذا!

س

يا ربّ؛ اغفر لي وارحمني، ساعدني لأتخطّاه..

.. ساعدني لأتجاوز ما يريده قلبي المسكين!

* * *

10

«قبلة واحدة، وبعدها؛ وداعاً».

(بيرنز)

* * *

لم أستطع الذّهاب إلى العمل في اليوم التالي، بسبب ما حصل..

لم أستطع أن أخبر (عماد) بما أفكّر فيه، يجب أن يكون هذا مباشرة، لا يصلح الاتصال الهاتفي لهذا النوع من الحديث..

* * *

مرّ اليوم على خير، وأنا أفكّر بالأسلوب والطريقة الّتي سأتكلّم فيها معه..

قضى (عماد) كلّ اليوم، وهو يرسل لي رسائل نصية، ويتّصل، دون أن أجيب..

* * *

جاء اليوم الثاني ووصلت مكتبي، وكان بانتظاري، مع باقة ورد..

دخلت بحزم، بصرامة، ألقيت السلام دون أن أنظر في وجهه..

لا بدّ أن أكون باردة، لا بدّ أن أضع حداً، لا بدّ لهذا أن يتوقّف..

جلست، نظرت في عينيه مباشرة، عينيه المندهشتين؛ وبدأت الكلام..

.. بكلّ هدوء!

* * *

أخبرته بكلّ ما فكرت فيه، بمدى فداحة الأمر في نظري، بموضوع الثقة ذاك، بخيانتي معه لزوجي، وأطفالي، ونفسي..

أخبرته بما سيكون عليه الأمر لو وافقته، وأنّ النتائج لن تسرّ أحداً، وأنني لا أنكر المشاعر التي في داخلي، وأنّ قلبي مطمئنّ له، سعيد معه..

أخذ ينظر لي في ألم وأنا أتكلّم، نعم، يحبّني، يعشقني، لكنّ الحقيقة دوماً صادمة، وبالذات لي أنا..

ما تزال أبواب الحياة مفتوحة أمامه، ما يزال صغيراً، ثرياً، وسيماً، معروفاً، نشيطاً جداً، علاقاته واسعة ويستطيع القيام بكلّ شيء لا أستطيع القيام به..

يستطيع إيجاد الفتاة المناسبة، بينما أنا حتّى لو وجدت الرجل المناسب، وقد وجدته؛ فلن يتغيّر شيء..

فقط؛ ستزيد الحسرة!

* * *

عليّ ألاّ أكون أنانية، وألاّ أسمح لمشاعري تجاهه، أن تدمّر أسرتي، وأطفالي، وحياتي الّتي أعيشها

منذ عشرة أعوام..

سمعني كما يجب، وأصغى إليّ كما ينبغي، ثمّ نهض..

وقف، وقد وصلت دقات قلبه الألف دقة، مثلي بالضبط، أشعر به، بما يحسّ، وأشعر بي جيداً أيضاً..

قال:

- أكره أن أقول هذا؛ ولكنّك على حقّ..

يخفض رأسه، ثمّ يرفعه وقد امتلأت عيناه بالدّموع!

* * *

«الكلمات عبث، أيّتها السّحابة الّتي أمطرت على جفافي موسماً من الخصب، ولكن في عينيك كانت توجد دائماً الكلمة الجديدة البكر التي لم تصدأ من كثرة ما تناقلتها الشفاه..

كانت تولّد في قبضة الصّمت نبضاً عبقرياً يلتمع بالدّهشة..

كيف تركتك تذهبين؟ ما الذي سأفعله بك؟ أي أرض ستخصب بعدك؟ وأيّ شبّاك سيُدخل إلى جفافي ويباسي ريحَ الصّبح؟».

(غسان كنفاني)

* * *

أقول:

- سأقدّم استقالتي غداً يا (عماد)، وسأغيّر رقم هاتفي، وبريدي الإلكتروني، وسأنسحب من حياتك تماماً..

يرفع عينيه المحمرّتين، وينظر لي.. يقول:

- كلاّ..

تدمع عيناي عندما أراه هكذا.. ما يزال طعم قبلته، واحتضانه إياي، وشعوري بين ذراعيه؛ يأسرني..

لكنّ هذا يجب أن ينتهي..

يجب!

يردف:

- .. لست أنت الملامة بل أنا، أنا الذي سأستقيل..

أفتح شفتيّ، وأهمّ بأن أقول شيئاً، لكنّه يباغتني:

- .. لا تقولي شيئاً، أرجوكِ.. دوري الآن لأقول لك هذه العبارة وإن كانت الظروف مختلفة يا (عليا).. لا تقولي شيئاً، أنا الذي سأنسحب، أنا الذي سأستقيل..

يتنهّد، ينظر في عينيّ، يقترب، يمسك يدي ويقبّلها غير عابئ بمرور أيّ شخص خارج مكتبي:

- .. هذه علاقة محكومة بالموت.. أنت امرأة صعبة، أنت مستحيلة المنال بالفعل، والتورط في

قضية خاسرة لن يفيدني، ولن يفيدك..

الحقيقة مخلوق مزعج! أفكّر وهو يتكلّم:

- .. لا تستطيعين تخيّل ما كنتُ قبلكِ، وكيف حوّلتني وغيّرتني لشيء كان أبواي يريدان دوماً أن أصل إليه..

يبتعد عنّي، بتثاقل، ببطء، يلتفت لي:

- .. وداعاً يا (عليا)..

* * *

«- الوداع

- الوداع

استفقنا ذهولاً:

من الرّعب لم ألتفت

وهي لم تلتفت».

(محمد عفيفي مطر)

* * *

11

«لم نعدْ نتلاقى
لم يعُدْ بينَنا غيرُ نبْذٍ ونفْيٍ؛
والمواعيدُ ماتَتْ، وماتَ الفضاءْ
وحدَهُ الموتُ
صارَ اللّقاء».

(أدونيس)

* * *

ومرّت أيّام كثيرة جداً.. ولم أسمع من (عماد) شيئاً، ولم أعرف عنه أيّ خبر، ولم أتواصل وإيّاه بأيّ طريقة..

صدق وعده، إلاّ أنّ أحد أصدقائه في الشركة، قال لشابين كانا أمامه قبل يومين، دون أن يعرف أنّني أسمعهما بالصّدفة:

- كما تركهنّ بغتة وبدونٍ سبب؛ رجع لهنّ بغتة كذلك.. أخبرني (عماد) بالأمس أنّه كان برفقة (هند) و(غدير) و(رزان) معاً!

* * *

لو كنت امرأة أخرى، لاهتممت بالأمر..
لكنّني لست كذلك..
لست عشيقة له، ولا حبيبة!
لم يكن (عماد) غير نزوة عابرة في حياتي، نزوة لن تتكرّر..
لم أكن له إلاّ (عليا)؛ السيّدة المستحيلة، والفاكهة المحرّمة..
لا يهمّني أيّ شيء؛ لا يهمّني سوى (نيفين) و(صادق) فحسب!

* * *

«من بلدٍ ستدورُ إلى آخر
ومن امرأةٍ ستفرُّ إلى امرأةٍ
من صحراءَ إلى أخرى
لكنَّ الخيطَ الممدودَ مع الطائرة الورقيِّة
سيظلُّ الخيطَ المشدودَ
إلى النِّخلة

حيثُ ارتفعتْ طيُّارتكَ الأولى».

(سعدي يوسف)

* * *

الفصل الثالث [(3)]
هُمَا

.....

.....

.....

.....

.....

(3) لَن يُكتبْ!